

سلسلة تهذيب كتب الإمام ابن قيم الجوزية (٦)

تهذيب
عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين

للإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١هـ)

إعداد
د. سلطان بن ناصر الناصر د. تركي بن عبد الله الميمان

إشراف
عطاءات العلم



دار عطاءات العلم



سلسلة تهذيب كتب الإمام ابن قيم الجوزية (٦)

تهذيب
عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين

للإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١هـ)

إعداد

د. سلطان بن ناصر الناصر   د. تركي بن عبد الله الميمان

إشراف

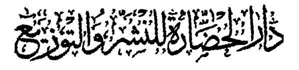
عطاءات العلم



ح مؤسسة عطاءات العلم للنشر، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الميان، تركي بن عبدالله
تهذيب عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين/ تركي بن عبدالله الميمان،
سلطان بن ناصر الناصر. - الرياض ١٤٤٢هـ
ص؛ ..سم
ردمك: ٣-٢٠-٨٣١٤-٦٠٣-٩٧٨
١- الأخلاق الإسلامية ٢- الصبر ٣- الوعظ والإرشاد أ- الناصر، سلطان بن ناصر (مؤلف مشترك) ب- العنوان
ديوي ٢١٢,٢ ١٤٤٢/١٠٢٠٧

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م

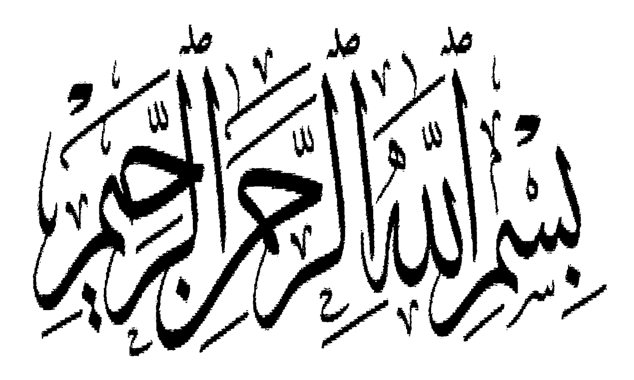


المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011
@daralhadarah 0551523173
زوروا متجر الحضارة
daralhadarah.net

أحد مشاريع



هاتف: ٤٩١٦٥٣٣ ٩٦٦١١+
فاكس: ٤٩١٦٣٧٨ ٩٦٦١١+
info@ataat.com.sa


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ فإن «**عطاءات العلم**» بيت خبرة في تطوير البرامج العلمية الشرعية ورعايتها، وتمكين العاملين فيها، وهي تسعىٰ إلىٰ الارتقاء بالجهات والبرامج العلمية الشرعية بطريقة منهجية، وصولاً لتحقيق مقاصد الشريعة، وترسيخ القيم الإسلامية.

لقد نهضت «**عطاءات العلم**» منذ تأسيسها بعدة مشاريع نوعية وفق منهجية احترافية صممتها خصيصًا لصناعة المشاريع العلمية الشرعية، بين دراسات علمية محكّمة، ونصوص تراثية محققة، وبرامج تطويرية متخصصة، وموسوعات علمية إلكترونية متميزة، وسلسلة إصدارات كوكبة من الأئمة الأعلام، وغيرها من المشاريع والبرامج ذات الأثر العظيم والنفع العميم.

ولما كانت خدمة العلم الشرعي ونشره وتوريثه للأجيال المتعاقبة مما يجدر بأهل الإسلام الحرص عليه أولته «**عطاءات العلم**» عنايتها واهتمامها، فاحتضنت لأجله أحد مشروعاتها النوعية، وهو مشروع تحقيق آثار العلماء ونشرها، ومنها آثار الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله تعالىٰ - وذلك بطباعتها وتحقيقها تحقيقًا علميًّا لائقًا؛ بتوفير أفضل نسخها الخطية في العالم، ومقابلة نصوصها، وتحريرها، والتعليق عليها بما يخدمها ويوضّح مقاصدها، وكتابة مقدمات تعرّف بكل كتاب وتكشف مزاياه، وصُنْع فهارس كاشفة مفصلة لعلومه وخباياه، في عمل علمي مبارك ابتدأ منتصف عام ١٤٢١هـ بإشراف الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، وتمويل مؤسسة الشيخ سليمان الراجحي الخيرية، واستمر نحو عشرين عامًا حتىٰ سنة ١٤٤١هـ ونفع الله به من شاء من عباده في مختلف

بلدان العالم.

وحين انتهىٰ العمل من نشر هذه الكتب العلمية النافعة باتت الحاجة ماسة إلىٰ تقريب عيون هذه الكتب وتهذيبها واختصارها، بمنهج علمي محكم يسهم في توسيع دائرة الاستفادة من علومها وفوائدها لعموم القراء، الذين قد يحول بينهم وبين الانتفاع بها استطراد المؤلف وإسهابه في تقرير المسائل والرد علىٰ المخالفين ونحو ذلك، كما يستفيد منها المتخصصون في العلوم الشرعية الراغبون في خلاصات جامعة لأفكار الكتب لغرض المراجعة والاستذكار.

ويطيب اليوم لـ«**عطاءات العلم**» أن تقدم لأهل العلم وطلابه والحريصين علىٰ تراثه هذا المشروع العلمي الجديد في تهذيب نخبة من مؤلفات الإمام ابن قيم الجوزية، رحمه الله تعالىٰ، وهو مشروعٌ علمي مبارك نهض به فكرةً وإعدادًا فضيلة الشيخ الدكتور سلطان ابن ناصر الناصر (عضو المجلس الإشرافي لعطاءات العلم) وتولت «**عطاءات العلم**» الإشراف عليه تتميمًا ومراجعةً وتوثيقًا وصفًّا وإخراجًا.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفع بهذه الإصدارات العلمية المهذبة كما نفع بأصولها، وأن يبارك فيها وينفع بها الأمة، ويجزل الأجر ويعظم المثوبة للشيخ سليمان بن عبد العزيز الراجحي ومؤسسته الخيرية علىٰ رعايتها المباركة التي أثمرت هذا المشروع وأصله، ولفضيلة الشيخ الدكتور سلطان بن ناصر الناصر وجميع المشاركين فيه، ويجعله من العلم النافع الذي يستمر ثوابه ولا ينقطع، والحمد لله أوَّلًا وآخرًا، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

عطاءات العلم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، ومن تبع هداهم واقتفىٰ سننهم إلىٰ يوم الدين.

أما بعد: فإن الإمام الحافظ أبا عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر، المعروف بـ«ابن قيم الجوزية» المولود سنة ٦٩١ والمتوفىٰ سنة ٧٥١ هـ - رحمه الله تعالىٰ - من أعلىٰ أهل العلم مرتبة في جودة التصنيف وكثرة التأليف، وقد أسبغ الله علىٰ كتبه من النضارة وجمال العبارة ما بهر عقول العلماء؛ لما فيها من استقصاء أصول المسائل وآثارها، وإبراز مقاصد الشريعة وأسرارها، فصار لها من القبول والانتشار والأثر، ما هو لائق بتلك العلوم والفوائد والدرر.

ولما كانت مؤلفات هذا الإمام الجليل زاخرة بالتحقيقات العلمية والتجليات الإيمانية التي تعظم حاجة الناس إلىٰ مداومة النظر فيها علىٰ اختلاف مستوياتهم المعرفية، فضلًا عن طلاب العلوم الشرعية، والتي قد يحول دون قراءتها ورودها بين أمواج بحر تقريراته وردوده ذات النفس الطويل، ظهرت الحاجة لتقريب مصنفاته بتقديم تهذيبات علمية مركزة لمباحثها وأفكارها، دون ما فيها من الاستطرادات التي لا تكون محل اهتمام لدىٰ غير المختصين بموضوعاتها، فجاء هذا العمل محققًا لتلك الغاية الشريفة، خدمةً لعموم المسلمين وخاصتهم، سواء منهم من لم يتسنَّ له قراءة الأصل، أو من أراد تكرار النظر في زبدة ذلك الأصل، وجاريًا علىٰ طريقة أهل العلم في اختصار التصانيف

وتهذيبها، وذلك من أغراض التأليف ومقاصده المشهورة، كما عبَّر عنه ابن خلدون في مقدمته بقوله: «أن يكون الشيء من التآليف التي هي أمهات للفنون مطولًا مسهبًا، فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر إن وقع».

وقد جرى العمل في التهذيب وفق منهج يتلخص فيما يلي:

١ - إثبات ألفاظ المؤلف بدون تصرف فيها ولا زيادة عليها.

٢ - المحافظة علىٰ ترتيب ورود النصوص في الأصل بدون تقديم أو تأخير.

٣ - الاقتصار علىٰ صلب الفكرة المقصودة، وحذف الاستطرادات، مع الحرص علىٰ إظهار السياق علىٰ نحوٍ متسق.

٤ - الاختصار في عرض الأقوال والأدلة والنقاشات والتعريفات ونحوها.

٥ - إثبات جميع عناوين الأبواب والفصول ولو كان المحذوف فيها كثيرًا.

٦ - إبراز بعض الفوائد والعبارات الصالحة للانتقاء والاقتباس، وذلك بتحبيرها باللون الأحمر.

٧ - وضع قائمة في آخر التهذيب بالفوائد والعبارات المنتقاة التي وردت في الأصل ولم تثبت في التهذيب نظرًا لعدم ملاءمتها للسياق، لورودها في نصٍّ لم يطابق شرط التهذيب.

٨ - الاعتماد علىٰ النص المحقق في الإصدارات العلمية المتقنة التي تولت نشرها والإشراف عليها «عطاءات العلم».

وقد تكرمت «عطاءات العلم» جزاها الله خيرًا بخدمة التهذيب بما يلي:

١ - تخريج الأحاديث تخريجًا مختصرًا من حواشي الأصل.

٢ - شرح الألفاظ الغريبة شرحًا مختصرًا مستفادًا من حواشي الأصل.

٣ - وضع عناوين جانبية للموضوعات في بداية الفصول.

٤ - وضع أرقام صفحات الأصل علىٰ هامش الصفحات الأيمن والأيسر.

٥ - وضع فهرس للفوائد والعبارات الصالحة للاقتباس في نص التهذيب أو النصوص المحذوفة من الأصول.

٦ - وضع فهرس مفصل للكتاب.

٧ - مراجعة التهذيب وتحكيمه علميًّا.

٨ - التجهيز للطباعة.

وأجزل الشكر وأوفاه للمؤسسة العلمية الرائدة «**عطاءات العلم**» لجهودها في خدمة هذا المشروع، ولكل من أسهم في إنجازه بسهم، تحقيقًا لأصوله، ومراجعة لنصوصه، وتنسيقًا لها وإخراجًا، تقبل الله من الجميع أعمالهم وبارك فيها وجعلها خالصة لوجهه، إنه سميع مجيب.

وكتب

د. سلطان بن ناصر الناصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ص٣
المقدمة

ربِّ يسِّر وأعِن

الحمدُ لله الصَّبورِ الشَّكورِ، العليّ الكبير، السميع البصير، العليم القدير، الذي شملَتْ قدرتُه كلَّ مقدور، وجَرت مشيئتُه في خلقه بتصاريفِ الأمور، وأَسمعت دعوتُه لليوم الموعود أصحابَ القبورِ، قَدَّرَ مقاديرَ الخلائقِ وآجالَهم، وكتب آثارَهم وأعمالهم، وَقسَّم بينهم معايِشَهم وأموالَهم، وخَلَق الموت والحياةَ لِيَبلُوَهم أيُّهم أحسنُ عملًا وهو العزيزُ الغفورُ، القاهرُ القادرُ، فكلُّ عسيرٍ عليه يَسير، والمولىٰ النَّاصِرُ، فَنِعمَ المولىٰ ونِعمَ النَّصيرُ.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ١-٤].

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، إلهٌ جلَّ عن الشَّبيه والنظير، وتعالىٰ عن الشَّريكِ والظهيرِ، وتقدَّسَ عن تعطيل الملحدين، كما تنزَّه عن شَبَهِ المخلوقين، فـ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، وخيرتُه من بريَّته، وصفوتُه من خَليقته، وأمينُه علىٰ وَحْيِه، وسفيرُه بينه وبين عباده، أعرفُ الخَلقِ بِه، وأقومُهم بخشيته، وأنصحُهم

لأمَّته، وأصبرُهم لِحُكمِه، وأشكرُهم لِنِعَمِه، وأقربُهم إليه وسيلَةً، وأعلاهُم عند منزلةً، وأعظمُهم عنده جاهًا، وأوسعُهم عنده شفاعةً، بعثهُ إلىٰ الجَنَّةِ داعيًا، وللإيمانِ مُناديًا، وفي مرضاته ساعيًا، وبالمعروف آمرًا، وعن المنكر ناهيًا، فَبَلَّغ رسالاتِ ربِّه، وصدَعَ بأمره، وتحمَّل في مرضاته ما لم يتحمَّلْه بشرٌ سواه، وقام لله بالصَّبر والشُّكر أحَقَّ القيام حتىٰ بَلَغ رضاه، فَثَبَت في مَقامِ الصَّبر حتىٰ لم يلحقْه أحدٌ من الصابرين، وَتَرقَّىٰ في دَرَجةِ الشُّكر حتىٰ علا فوقَ جميعِ الشاكرين.

فَحَمِده اللهُ وملائكتُه ورسلُه وجميعُ المؤمنين، ولذلك خُصَّ بلواءِ الحمدِ دون جميع العالمين، فآدمُ تحتَ لوائِه ومَن دونه من الأنبياءِ والمرسلين. وجعلَ الحمْدَ فاتحةَ كتابِه الذي أنزلَه عليه، وآخرَ دعوىٰ أهلِ ثوابِه الذين هداهم علىٰ يديه.

وسمَّىٰ أمَّته الحَمَّادين قبل أن يُخرجَهم إلىٰ الوجودِ[1] لحمدِهم له علىٰ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والشِّدَّةِ والرخاءِ، وجعلَهم أَسبق الأممِ إلىٰ دارِ الثَّوابِ والجزاءِ، فأقربُ الخلقِ إلىٰ لوائه أكثرُهم حمدًا لله وذكرًا، كما أن أعلاهم منزلةً أعظمهم صبرًا وشُكرًا، فصلَّىٰ اللهُ وملائكتُه وأنبياؤُه ورسلُه وجميعُ المؤمنين عليه، كما وَحَّدَ الله وَعَرَّفَ به ودعا إليه، وَسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإن الله سبحانه جعل الصبر جوادًا لا يكبو[2] وصارمًا لا ينبو[3] وجندًا غالبًا لا يُهزَم، وحِصنًا حَصِينًا لا يُهدم ولا يُثلَم، فهو والنصر أخوان شقيقان.

(١) كما في أثر كعب الأحبار في وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمته في بعض كتب اليهود. أخرجه الدارمي (٥، ٧، ٨).

(٢) كبا الجوادُ يكبو كبوة: إذا عثر. انظر: «لسان العرب» (١٥/ ٢١٣).

(٣) نبا السيف: إذا كلَّ ولم يقطع. انظر: «لسان العرب» (١٥/ ٣٠١).

رَضِيعَيْ لِبَانٍ ثَدْيَ أُمٍّ تقاسما   بأَسْحَمَ داجٍ عَوضُ لا نتفرَّقُ[(١)]

فالنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، واليسر مع العسر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال، بلا عُدَّةٍ ولا عَدَد، ومحله من الظَّفَر كمحل الرأس من الجسد.

ولقد ضَمِن الوفيُّ الصادق لأهله في محكم كتابه أنه يُوَفِّيهم أجرهم بغير حساب، وأخبر أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين، فقال تعالىٰ: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] فذهب الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة، وفازوا بها بنعمه الباطنة والظاهرة.

وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطةً بالصبر واليقين، فقال تعالىٰ، وبقوله اهتدىٰ المهتدون: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وأخبر أن الصبر خير لأهله خبرًا مؤكدًا باليمين، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وأخبر أن مع الصبر والتقوىٰ لا يضر كيدُ العدو ولو كان ذا تسليط، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وأخبر عن نبيِّه يوسفَ الصديقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن صبره وتقواه وصَّلاه إلىٰ محل العز والتمكين، فقال: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

---

(١) البيت للأعشىٰ وهو في «ديوانه» (ص ٢٧٥).

وعلّق الفلاح بالصبر والتقوىٰ، فعقل ذلك عنه المؤمنون، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

وأخبر عن محبته لأهله، وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ولقد بشر الصابرين بثلاثٍ، كلٌّ منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

ووصّىٰ عبادة بالاستعانة بالصبر والصلاة علىٰ نوائب الدنيا والدين، فقال: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥].

وجعل الفوز بالجنة والنجاةَ من النار لا يحظىٰ به إلا الصابرون، فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١١].

وأخبر أن الرغبة في ثوابه والإعراضَ عن الدنيا وزينتها لا يُلقَّاها إلا أولو الصبر المؤمنون، فقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠].

وأخبر أن دفع السيئة بالتي هي أحسن تجعل المسيء كأنه ولي حميم، فقال: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤] وأن هذه الخصلة لا يُلقَّاها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

[فصلت:٣٥].

وأخبر سبحانه خبرًا مؤكدًا بالقسم: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٢-٣].

وقسَّم خلقه قسمين: أصحابَ ميمنة وأصحاب مشأمة، وخصَّ بالميمنة أهلَ التواصي بالصبر والمرحمة.

وخصَّ بالانتفاع بآياته أهلَ الصبر وأهل الشكر تمييزًا لهم بهذا الحظ الموفور، فقال في أربع آيات من كتابه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥، لقمان: ٣١، سبأ: ١٩، الشورى: ٣٣].

وعلَّق المغفرةَ والأجر بالعمل الصالح والصبر، وذلك على من يسَّره عليه يسير، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١].

وأخبر أن الصبر والمغفرة من العزائم التي تجارة أهلها لا تبور، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وأمر رسوله بالصبر لحُكمه، وأخبر أن صبره إنما هو به، وبذلك جميع المصائب تهون، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] وقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

فالصبر آخيَّة المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها[١] وساقُ إيمانه التي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له، وان كان فإيمانٌ قليلٌ في غاية الضعف وصاحبه ممن ﴿يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [الحج: ١١] ولم يحظَ منهما إلا بالصفقة الخاسرة.

فخيرُ عيشٍ أدركه السعداءُ بصبرهم، وترقَّوا إلىٰ أعلىٰ المنازل بشكرهم، فساروا بين جناحَي الصبر والشكر إلىٰ جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

❊❊❊❊❊

ص١٠ الإيمان نصف صبر ونصف شكر

فصل

ولما كان الإيمان نصفين: نصفَ صبر ونصفَ شكر، كان حقيقًا علىٰ من نصح نفسه وأحب نجاتها وآثر سعادتها ألا يُهمل هذين الأصلين العظيمين، ولا يعدِلَ عن هذين الطريقين القاصدين، وأن يجعل سيره إلىٰ الله بين هذين الطريقين، ليجعله يوم لقائه مع خير الفريقين.

فلذلك وُضع هذا الكتاب للتعريف بشدة الحاجة والضرورة إليهما، وبيانِ توقُّف سعادة الدنيا والآخرة عليهما، فجاء كتابًا جامعًا حاويًا نافعًا، فيه من الفوائد ما هو حقيق أن يُعضَّ عليه بالنواجذ وتُثنىٰ عليه الخناصر، ممتعًا لقارئه، مُرِيحًا للناظر فيه، مسلِّيًا

---

(١) الآخيَّة بالمد والتشديد: عروة مثنيَّة يُدفن طرفاها في حائط أو في الأرض، تشدُّ بها الدابَّة. انظر: «النهاية» لابن الأثير (١/ ٢٩)، و«لسان العرب» (١٤/ ٢٣).

للحزين، مُنهضًا للمقصرين، محرِّضًا للمُشمِّرين، مشتملًا علىٰ نكاتٍ حِسانٍ من تفسير القرآن، وعلىٰ أحاديثَ نبويةٍ معزوةٍ إلىٰ مظانها، وآثارٍ سلفية منسوبة إلىٰ قائلها، ومسائلَ فقهيةٍ حسانٍ مقررة بالدليل، ودقائقَ سلوكيةٍ علىٰ سواء السبيل.

وذكرِ أقسام الصبر ووجوهه والشكرِ وأنواعه، وفَصْلِ النزاع في التفضيل بين الغني الشاكر والفقير الصابر، وذكرِ حقيقة الدنيا وما مثَّلها اللهُ ورسولُه والسلف الصالح به، والكلامِ علىٰ سِرِّ هذه الأمثال ومطابقتها لحقيقة الحال، وذكرِ ما يُذمُّ من الدنيا ويُحمَدُ، وما يقرِّبُ منها إلىٰ الله ويُبْعِد، وكيف يَشقىٰ بها من يشقىٰ ويسعدُ بها من يسعد، وغيرِ ذلك من الفوائد التي لا يكاد يُظفر بها في كتاب سواه.

وذلك محض منةِ الله علىٰ عبده، وعطيةٍ من بعض عطاياه، فهو كتاب يصلح للملوك والأمراء، والأغنياء والفقراء، والصوفية والفقهاء، يُنهِض القاعدَ إلىٰ المسير، ويؤنس السائر في الطريق، وينبِّه السالك علىٰ المقصود.

ومع هذا فهو جهد المُقِلِّ وقدرة المفلس، حذَّر فيه من الداء وإن كان من أهله، ووصف فيه الدواء وإن قصَّر عن تناوله لظلمه وجهله، وهو يرجو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين أن يغفر له غِشَّهُ لنفسه بنصيحته لعباده المؤمنين.

فما كان في الكتاب من صوابٍ فمن الله وحده، فهو المحمود المستعان، وما كان فيه من خطأ فمِن مصنفه ومن الشيطان، واللهُ بريءٌ منه ورسولُه.

وهذه بضاعةُ مؤلِّفه المُزجاةُ تُساق إليك، وسِلعته تُعرَض عليك، فلقارئه غُنْمُه، وعلىٰ مؤلفه غُرْمُه.

وسَمَّيتُهُ «**عُدَّة الصابرين وذَخِيرةَ الشاكرين**».

والله سبحانه المسؤول أن يجعله خالصًا لوجهه مُدنيًا من رضاه، وأن ينفع به مؤلفَه وكاتبَه وقارئَه، إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ص١٥

البابُ الأول

في معنى الصبر لغة واشتقاق هذه اللفظة وتصريفها

أصل هذه الكلمة هو: المنع والحبس. فالصبر: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكِّي والتسخُّط، والجوارحِ عن لطم الخدود وشقِّ الجيوب ونحوهما.

ويقال: صَبَرَ يَصْبِرُ صَبْرًا، وصَبَرَ نفسَه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال عنترة:

فَصَبَـرتُ عارفـةً لذلـكَ حُـرَّةً   تَرسُو إذا نَفْسُ الجبانِ تَطَلَّعُ[١]

يَقُول: حَبَسْتُ نَفْسًا عارفةً، وهي نفسُ حرٍّ يأنف لا نفسُ عبد لا أَنَفَةَ له. وقوله: ترسو، أي: تثبت وتسكن، إذا خفَّت نفسُ الجبان واضطربت.

وقيل: أصلُ الكلمةِ من الشدة والقوة، ومنه: الصَّبِر للدواء المعروف؛ لشِدة مَرارته وكراهته.

وقيل: هو مأخوذٌ من الجمع والضَّمِّ؛ فالصَّابر يجمع نفسه ويضمُّها عن الهَلَع والجَزَع، ومنه: صُبْرَة الطعام، وصُبَارَةُ الحجارة.

والتحقيق: أن في الصبر المعانيَ الثلاثةَ: المنع، والشدة، والضمّ.

---

(١) البيت في «ديوانه» (ص ٥٨).

ويُقال: صَبَرَ إذا أتىٰ بالصبر، وتصبَّر إذا تكلَّفه واستدعاه، واصطبر إذا اكتسبه وتعلَّمه، وصابَرَ إذا واقَفَ خصمَه في مقام الصبر، وصبَّر نفسَه وغيرَه – بالتشديد – إذا حَمَلها علىٰ الصبر.

واسم الفاعل: صَابِر، وصبَّار، وصَبُور، ومُصابِر، ومُصْطَبِر؛ فمُصابر مِن صابَرَ، ومُصطبر مِن اصطبر، وصابِر مِن صَبَر، وأما صبَّار وصبُور فهو مِن أوزان المبالغة مِن الثلاثي كضرَّابٍ وضَروبٍ، والله تعالىٰ أعلم.

ص١٩

الباب الثاني

في حقيقة الصبرِ وكلامِ الناسِ فيه

قد تقدم بيان معناه لغةً.

وأما حقيقتهُ فهو: خُلُق فاضل من أخلاق النفس، تمتنع به مِن فعلِ ما لا يَحسُن ولا يَجمُل، وهو قوةٌ مِن قُوىٰ النفس التي بها صَلاحُ شأنِها وقِوام أمرها.

وسُئل عنه الجُنيد بن محمد؛ فقال هو: «تجرُّع المرارة من غير تعبُّس»[(١)].

وقال ذو النون: «هو: التباعدُ عن المخالفاتِ، والسكونُ عند تجرُّعِ غُصَص البلية، وإظهارُ الغِنىٰ مع حلولِ الفقرِ بساحاتِ المعيشة»[(٢)].

وقيل: «الصبرُ: هو الوقوف مع البلاء بحُسن الأدب»[(٣)].

وقال أبو علي الدَّقَّاق: حدُّ الصبر: ألا يعترض علىٰ التقدير. فأما إظهار البلاء علىٰ غير وجه الشكوىٰ فلا ينافي الصبر، قال الله تعالىٰ في قصة أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] مع قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾[(٤)] [الأنبياء: ٨٣].

قلت: فسر اللفظة بلازمها.

---

(١) انظر: «الرسالة القشيرية» (ص ٢٥٥).
(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٩/ ٣٦٢)، و«الرسالة القشيرية» (ص ٢٥٦).
(٣) انظر: «الرسالة القشيرية» (ص ٢٥٦) منسوبًا لابن عطاء.
(٤) انظر: «الرسالة القشيرية» (ص ٢٥٩).

وأما قوله: «علىٰ غير وجه الشكوىٰ» فالشكوىٰ نوعان:

أحدهما: الشكوىٰ إلىٰ الله، فهذا لا ينافي الصبر؛ كما قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨، ٨٣] وقال أيوب: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] مع وصف الله له بالصَّبر.

وقول سيِّد الصابرين صلوات الله وسلامه عليه: «**اللهم إليك أشكو ضعفَ قوَّتي وقلَّة حِيلتي ...**» الحديث[(١)].

وقال موسىٰ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم لك الحمد، واليك المُشْتكىٰ، وأنت المُسْتعان، وبك المُسْتغاث، وعليك التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[(٢)].

والنوع الثاني: شكوىٰ المُبتلىٰ بلسان الحال أو المقال، فهذا لا يُجامع الصبر بل يُضادُّه ويُبطله.

فالفرق بين شكواه والشكوىٰ إليه.

والصبر والجَزَعُ ضدَّان، ولهذا يُقابَل أحدُهما بالآخر، قال تعالىٰ عن أهل النار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١].

والجزع قرين العجز وشقيقه، والصبر قرين الكَيْس ومادَّته؛ فلو سُئل الجَزِع: من

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٤/ ١٣٩ - ١٤١)، واختاره الضياء في «المختارة» (٩/ ١٨٠ - ١٨١).

(٢) أخرجه الطبراني في «الصغير» رقم (٣٣٩)، دون قوله: «وبك المستغاث، وعليك التكلان»، وجوَّد إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٦٠٤).

أبوك؟ لقال: العجز. ولو سُئل الكَيِّس: من أبوك؟ لقال: الصبر.

والنفس مطيَّةُ العبد التي يسير عليها إلىٰ الجنة أو النار، والصبر لها بمنزلة الخِطام والزمام للمطية، فإن لم يكن للمطيه خطام ولا زمام شرَدَت في كل مذهب.

وحُفِظَ من خُطَبِ الحجَّاج: «اقْدَعُوا هذه النفوس؛ فإنها طُلَعَةٌ إلىٰ كلِّ سوء، فرحم الله امرأً جعل لنفسه خِطامًا وزِمامًا؛ فقادها بخطامها إلىٰ طاعة الله، وصَرَفها بزمامها عن معصية الله، فإن الصبر عن محارم الله أيسرُ من الصبر علىٰ عذابه»[1].

قلت: والنفس فيها قوَّتان: قوة الإقدام، وقوة الإحجام، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلىٰ ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكًا عما يضره.

ومن الناس من يكون صبره علىٰ فعلِ ما يَنتفع به وثباتُه عليه أقوىٰ من صبره عمَّا يضره، فيصبر علىٰ مشقة الطاعة، ولا صبر له عن داعي هواه إلىٰ ارتكاب ما نُهِيَ عنه.

ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات أقوىٰ من صبره علىٰ مشقة الطاعات.

ومنهم من لا صبر له علىٰ هذا ولا علىٰ هذا.

وأفضل الناس أصبَرُهم علىٰ النوعين.

---

(١) ذكر نحوه المبرد في «الكامل» (١/ ١٦٠).

ص٢٨

الباب الثالث

في بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى مُتعلَّقه

لمَّا كان الصبر المحمود هو: الصبر النفساني الاختياريُّ عن إجابة داعي الهوىٰ المذموم، كانت مراتبه وأسماؤه بحسب مُتعلَّقه:

فإنه إن كان صبرًا عن شهوة الفرج المحرمة سُمِّي **عفةً**، وضدها الفجور والزنا والعُهر.

وإن كان عن شهوة البطن وعدم التسرع إلىٰ الطعام أو تناول ما لا يَحِلُّ منه سُمِّي **شَرَفَ نفْسٍ وشِبَع نفس**، وسُمي ضده شَرَهًا ودَناءة ووَضاعةَ نفْس.

وإن كان عن إظهار ما لا يَحسُن إظهارُه من الكلام سُمي **كتمانَ سرٍّ**، وضده إذاعةً وإفشاءً أو تهمةً أو فحشًا أو سبًّا أو كذبًا أو قذفًا.

وإن كان عن فضول العيش سُمِّي **زهدًا**، وضده حرصًا.

وإن كان علىٰ قدرٍ يكفي من الدنيا سُمِّي **قناعة**، ويُضادُّها الحرص أيضًا.

وإن كان عن إجابة داعي الغضب سُمِّي **حلمًا**، وضده تسرُّعًا.

وإن كان عن إجابة داعي العَجَلة سُمِّي **وقارًا وثباتًا**، وضده طيشًا وخفَّة.

وإن كان عن إجابة داعي الفرار والهرب سُمي **شَجاعةً**، وضده جُبْنًا وخَوَرًا.

وإن كان عن إجابة داعي الانتقام سُمِّي **عفوًا وصَفْحًا**، وضده انتقامًا وعقوبة.

وإن كان عن إجابة داعي الإمساك والبخل سُمِّي **جودًا**، وضده بخلًا.

وإن كان عن إجابة داعي الطعام والشراب في وقت مخصوص سُمِّي **صَوْمًا**.

وإن كان عن إجابة داعي العجز والكسل سمي **كَيْسًا**.

وإن كان عن إجابة داعي إلقاء الكَلِّ [١] علىٰ الناس وعدَمِ حَمْلِ كَلِّهم سمي **مروءة**.

فله عند كل فعلٍ وتركٍ اسمٌ يخصُّه بحسب متعلَّقه، والاسم الجامع لذلك كله: الصبر.

وهذا يدلُّك علىٰ ارتباط مقامات الدين كلِّها بالصبر من أولها إلىٰ آخرها.

وكذا يُسَمَّىٰ **عدلا** إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين وضده الظلم.

وسُمِّي **سماحةً** إذا تعلَّق ببذل الواجب والمستحب بالرضا والاختيار، وعلىٰ هذا منازل جميع الدين.

---

(١) الكَلّ: الثقل مِن كل ما يتكلف. «النهاية» (٤/ ١٩٨).

ص٣١

الباب الرابع
في الفرق بين الصبر والتصبُّر والاصطبار والمصابرة

الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره، فإن حَبْسَ نفسِه ومَنْعَها عن إجابةِ داعي ما لا يَحسُن: إن كان خُلُقًا ومَلَكةً سُمِّي **صبرًا**، وإن كان بتكلُّفٍ وتمرُّنٍ وتجرُّعٍ لمرارته سمي **تصبُّرًا**، كما يدل عليه هذا البناء لغة، فإنه موضوع للتكلُّف كالتحلُّم، والتشجُّع، والتكرُّم، والتحمُّل ونحوها. وإذا تكلفه العبدُ واستدعاه صار سجيةً له؛ كما في الحديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ومن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْه الله**»[١].

وكذلك العبد يتكلَّفُ التعفُّفَ حتىٰ يصير العَفَافُ له سجية، وكذلك سائر الأخلاق.

وهي مسألة اختلف الناس فيها: هل يمكن اكتساب الأخلاق أم لا يمكن اكتسابها؟

فقالت طائفة: الخُلُق كالخَلْقِ الظاهر لا يمكن اكتساب واحدٍ منهما، والتخلُّق لا يصير خُلُقًا أبدًا؛ كما قال الشاعر:

يُراد مِن القلب نسيانُكُمْ وتأبى الطِّباعُ على النَّاقِلِ[٢]

وقال الآخر:

يا أيُّها المتحلِّي غيرَ شِيمَته إن التخلُّقَ يأتي دونه الخُلُق[٣]

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).
(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوان المتنبي» مع الشرح المنسوب إلىٰ العكبري (ص ٢٢).
(٣) «النوادر» لأبي زيد (ص ٤٨٩) و«الكامل» للمبرد (١/ ١٦) منسوبًا إلىٰ التابعي الشاعر: سالم ابن وابصة.

وقال الآخر:

فَضَحَ التطبُّعُ شيمةَ المطبوعِ(١)

قالوا: وقد فرغ اللهُ سبحانه من الخَلْق والخُلُق والرزق والأجل.

وقالت طائفة أخرىٰ: بل يمكن اكتساب الخُلُق كما يُكتسَب العقل والحلم والجود والسخاء والشجاعة، والوجود شاهد بذلك.

قالوا: والمُزاولات تُعطي المَلَكات.

ومعنىٰ هذا: أن من زاول شيئًا واعتاده وتمرَّن عليه صار ملكةً له وسجيةً وطبيعة.

قالوا: والعوائدُ تنقل الطبائع؛ فلا يزال العبد يتكلف التصبُّر حتىٰ يصير الصبر له سجيةً، كما أنه لا يزال يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات حتىٰ تصير له أخلاقًا بمنزلة الطبائع.

قالوا: وقد جعل الله سبحانه في الإنسان قوة القبول والتعلم والتهيؤ للكمال، **فنقل الطبائع عن مقتَضَياتها غير مستحيل، غير أن هذا الانتقالَ قد يكون ضعيفًا فيعود العبدُ إلىٰ طبعه بأدنىٰ باعث، وقد يكون قويًّا ولكن لم ينتقل الطبع انتقالًا تامًّا، فقد يعود إلىٰ طبعه إذا قوي الباعث واشتد، وقد يستحكم الانتقال بحيث يستحدث صاحبُه طبعًا ثانيًا، فهذا لا يكاد يعود إلىٰ طبعه الذي انتقل عنه.**

---

(١) عجز بيت للشريف الرضي، وصدره: هيهات لا تتكلفنَّ الهوىٰ. وهو في «ديوانه» (١/ ٦٥٢).

وأما الاصْطبار فهو أبلغ من التصبُّر؛ فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب؛ فالتصبُّر مبدأ الاصطبار، كما أن التكسُّب مقدمة الاكتساب، فلا يزال التصبُّر يتكرر حتىٰ يصير اصطبارًا.

وأما المُصابرة فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر؛ فإنها مفاعلة تستدعي وقوعَها بين اثنين كالمُشاتمة والمُضاربة، قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ص٣٥

الباب الخامس

في أقسامه باعتبار محلِّه

الصبر ضربان: ضرب بدني، وضرب نفساني، وكلٌّ منهما نوعان: اختياري، واضطراري؛ فهذه أربعة أقسام:

الأول: البدني الاختياري، كتعاطي الأعمال الشاقَّة علىٰ البدن اختيارًا وإرادة.

الثاني: البدني الاضطراري، كالصبر علىٰ ألم الضرب والمرض والجراحات والبرد والحرِّ وغير ذلك.

الثالث: النفساني الاختياري، كصبر النفس عن فعلِ ما لا يَحسُن فعلُه شرعًا ولا عقلًا.

الرابع: النّفساني الاضطراري، كصبر النَّفس عن محبوبها قهرًا إذا حِيل بينها وبينه.

فإذا عرفت هذه الأقسام فهي مختصة بنوع الإنسان دون البَهائم، وتشاركة البهائمُ في نوعين منها وهما: صَبْر البدن والنفس الاضطراريين، وقد يكون بعضُها أقوىٰ صبرًا من الإنسان، وإنما تميَّز الإنسانُ عنها بالنوعين الاختياريين.

وكثيرٌ من الناس تكون قوةُ صبره في النوع الذي شارَكَه فيه البهائمُ لا في النوع الذي يختصُّ الإنسان، فيُعدُّ صابرًا وليس من الصابرين.

فالإنسان منا إذا غَلب صبرُه باعثَ الهوىٰ والشهوة التحق بالملائكة، وإن غلب باعثُ الهوىٰ والشهوة صبرَه التحق بالشياطين، وإن غلب باعثُ طَبْعه من الأكل والشرب

والجماع صبرَه التحق بالبهائم.

قال قتادة: «خلق الله سبحانه الملائكة عقولًا بلا شهوات، وخلق البهائم شهواتٍ بلا عقول، وخلق الإنسان وجعل له عقلًا وشهوة، فمن غلب عقلُه شهوتَه فهو مع الملائكة، ومن غلبت شهوتُه عقلَه فهو كالبهائم».

ولمَّا خُلق الإنسانُ في ابتداء أمره ناقصًا، لم تُخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، فصبره في هذه الحال بمنزلة صبر البهائم، وليس له قبل تمييزه قوةُ صبر الاختيار.

فإذا ظهرت فيه شهوة اللعب استعدَّ لقوة الصبر الاختياري علىٰ ضعفها فيه.

فإذا تعلقت به شهوةُ النكاح ظهرت فيه قوةُ الصبر.

فإذا تحرك سلطانُ العقل وقَوِي، أُعِين بجيش الصبر، ولكن هذا السلطانَ وجندَه لا يستقلان بمقاومة سلطان الهوىٰ وجنده؛ فإنَّ إشراق نور الهداية يلوحُ عليه عند أول سنِّ التمييز وينمو علىٰ التدريج إلىٰ سنِّ البلوغ، كما يبدو خيط الفجر ثم يتزايد ظهورُه، ولكنها هداية قاصرة غير مستقلة بإدراك مصالح الآخرة ومَضارِّها، بل غايتها تعلُّقها ببعض مصالح الدنيا ومفاسدها، فإذا طلعت عليه شمسُ النبوة والرسالة وأشرق عليه نورُها رأىٰ في ضوئها تفاصيلَ مصالح الدارين ومفاسدهما، فتَلَمَّح العواقب، ولَبِس لَأْمة الحرب[1] وأخذ أنواع الأسلحة، ووقع في حومة الحرب بين داعي الطبع والهوىٰ وداعي العقل والهدىٰ، والمنصورُ من نصره الله، والمخذول من خذله، ولا تضع الحربُ أوزارها حتىٰ ينزلَ في إحدىٰ المنزلتين، ويصيرَ إلىٰ ما خُلِق له من الدارين.

(١) لأمة الحرب: أداتها كالدرع والسيف والرمح. انظر: «لسان العرب» (١٢/ ٥٣٢).

ص٣٩

الباب السادس

في بيان أقسامه بحسب اختلافِ قُوَّتِه وضعفه ومقاومته لجيش الهوى وعجزه عنه

باعث الدين بالإضافة إلىٰ باعث الهوىٰ له ثلاثة أحوال:

إحداها: أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين فيُرَدَّ جيشُ الهوىٰ مفلولًا، وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر، والواصلون إلىٰ هذه الرُّتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة، وهم الذين قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] وهم الذين يقول لهم الملائكةُ عند الموت: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣١] وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين، وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده، فخصَّهم بهدايته دون من عداهم.

الحالة الثانية: أن يكون القَهْرُ والغلبةُ لداعي الهوىٰ، فتَسْقُطَ منازعةُ باعث الدين بالكلية، فيستسلم البائس للشيطان وجندِه فيقودونه حيث شاؤوا، وله معهم حالتان:

إحداهما: أن يكون من جندهم وأتباعهم، وهذه حال الفاجر الضعيف.

الثانية: أن يصير الشيطان من جنده، وهذه حال الفاجر القوي المُتسلِّط والمبتدع الداعية المتبوع، كما قال القائل:

وكنتُ امرأً من جندِ إبليسَ فارتقى ... بي الحالُ حتىٰ صارَ إبليسُ من جندي[1]

---

(١) البيت من قصيدة للخُبْزَأُرْزِيِّ في ديوانه المنشور في مجلة المجمع العراقي.

فيصير إبليس وجنودُه من أعوانه وأتباعه، وهؤلاء هم الذين غَلبت عليهم شِقْوتُهم، فاشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، وإنما صاروا إلىٰ هذه الحال لما أفلسوا من الصبر.

وهذه الحالة بين جَهد البلاء ودَرَك الشَّقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

وجندُ أصحابها: المكر، والخداع، والأماني الباطلة، والغرور، والتسويف بالعمل، وطولُ الأمل، وإيثار العاجل علىٰ الآجل.

فلا يستعمل أحدُهم عقله إلا في دقائق الحيل التي بها يتوصل إلىٰ قضاء شهوته، فعقلُه مع الشيطان كالأسير في يد كافرٍ، يستعملُه في رعاية الخنازير، وعصر الخمر، وحمل الصليب؛ وهو بقهره عقلَه وتسليمِه إلىٰ أعدائه عند الله بمنزلة رجلٍ قَهَرَ مسلمًا، وباعه للكفار، وسلَّمه إليهم، وجعله أسيرًا عندهم.

❋❋❋❋❋

فصل

ص٤٣ من أذل سلطان الله في نفسه سلط الله عليه عدوه

وهاهنا نكتة بديعة يجب التفطُّن لها، وينبغي إخلاءُ القلب لتأمُّلِها، وهي: أن هذا المغرور لما أذلَّ سلطان الله الذي أعزَّه به وشرَّفه ورفع به قدره، وسلَّمه إلىٰ أبغض أعدائه إليه، وجعلَه أسيرًا له تحت قهره وتصرُّفه وسلطانه، سلَّط الله عليه مَن كان حقُّه هو أن يتسلَّط عليه، فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه، يُسخِّره حيث شاء ويَسْخَر منه، ويسخر منه جنده وحزبه.

فكما أذل سلطانَ الله وسلَّمه إلىٰ عدوه، أذله الله وسلط عليه عدوَّه الذي أمَرَه أن

يتسلط هو عليه ويُذلَّه ويَقهَرُه، فصار بمنزلة من سلَّم نفسه إلىٰ أعدىٰ عدوٍّ له يسومه سوءَ العذاب، وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه، فلما ترك مقاومته ومحاربته واستسلم له سلَّط عليه عقوبةً له، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨- ١٠٠] .

والمقصود: أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونُصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته فسلَّمهم إلىٰ عدوه كان من عقوبته أن يُسلَّط عليه ذلك العدوُّ نفسه.

❊❊❊❊❊

فصل

ص٤٥ الحالة الثالثة تكون الحرب سجالًا ودُوَلًا بين الجندين

الحالة الثالثة: أن تكون الحرب سجالًا ودُوَلًا بين الجُندَين، فتارةً له وتارةً عليه، وتكثر نوبات الانتصار وتقلُّ، وهذه حال أكثر المؤمنين الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا.

وتكون الحال يوم القيامة مُوازِنةً لهذه الأحوال الثلاثة سواءً بسواء؛ فمِن الناس من يَدُخل الجنة ولا يدخُل النار، ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة، ومنهم من يدخل النار ثم يدخل الجنة.

وهذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس في الصحة والمرض، فمِن الناس مَن تقاوم قوَّتُه داءَه فتقهره ويكون السلطان للقوة، ومنهم من يقهر داؤُه قوَّتَه ويكون السلطان للداء،

ومنهم مَن الحربُ بين دائه وقوتِه نُوَبًا، فهو متردد بين الصحة والمرض.

فصل

ص٤٦
الناس
أنواع في
المشقة
والصبر

ومِن الناس مَن يصبر بجَهد ومشقة، ومنهم من يصبر بأدنىٰ حمْلٍ علىٰ النفس.

ومثال الأول: كرجل صارع رجلًا شديدًا فلا يقهره إلا بتعب ومشقة.

والثاني: كمن صارع رجلًا ضعيفًا فإنه يصرعُه بغير مشقة.

فهكذا تكون المصارعة بين جنود الرحمن وجنود الشيطان، ومن صرَع جند الشيطان صرَع الشيطان.



الباب السابع

ص٤٨

في ذِكْرِ أقسامه باعتبار متعلَّقه

الصبر باعتبار متعلَّقه ثلاثة أقسام:

صبر علىٰ الأوامر والطاعات حتىٰ يؤدِّيها.

وصبر عن المناهي والمخالفات حتىٰ لا يقع فيها.

وصبر علىٰ الأقدار والأقضية حتىٰ لا يتسخَّطها.

وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبد القادر في «فتوح الغيب»: «لا بد للعبد من أمرٍ يفعله، ونهيٍ يجتنبه، وقدَرٍ يصبر عليه»[1].

وهذا الكلام يتعلق بطرفين: طرف من جهة الرب تعالىٰ، وطرف من جهة العبد.

فأما الذي من جهة الرب، فهو: أن الله تعالىٰ له علىٰ عبده حكمان: حكم شرعي ديني، وحكم كوني قدري؛ فالشرعي متعلق بأمره، والكوني متعلِّق بخلقه، وهو سبحانه له الخلق والأمر.

وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب، فإنَّ المطلوب إنْ كان محبوبًا له فالمطلوب فِعلُه، إما وجوبًا وإما استحبابًا، ولا يتم ذلك إلا بالصبر؛ وإن كان مبغوضًا له فالمطلوب تركُه، إما تحريمًا وإما كراهة، وذلك أيضًا موقوف علىٰ الصبر. فهذا حكمه الديني الشرعي.

وأما حكمه الكوني القدري فهو ما يقضيه ويقدِّره علىٰ العبد من المصائب التي لا

(١) «فتوح الغيب» ص ٦.

صنع له فيها، ففَرْضُه الصبر عليها.

وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء[١] وهما وجهان في مذهب أحمد، أصحهما أنه مستحب.

فرجعَ الدين كلُّه إلىٰ هذه القواعد الثلاثة: فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر علىٰ المقدور.

وأما الذي من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه الثلاثة ما دام مكلَّفًا، ولا تسقط عنه هذه الثلاثة حتىٰ يسقط عنه التكليف، فقيام عبودية الأمر والنهي والقَدَر علىٰ ساق الصبر، لا تستوي إلا عليه كما لا تستوي السنبلة إلا علىٰ ساقها.

وهذه الثلاثة هي التي وصَّىٰ بها لقمان لابنه في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] فأَمْرُه بالمعروف يتناول فعلَه في نفسه وأمرَ غيرِه به، وكذلك نهيُه عن المنكر، إما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسُه وغيرُه فيه، وإما من حيث اللزوم الشرعي فإن الآمرَ الناهيَ لا يستقيم له أمرُه ونهيه حتىٰ يكون أولَ مأمورٍ ومنهيٍّ.

وقد ذكر تعالىٰ هذه الأصول الثلاث في قوله: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٢٥] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ [يوسف: ٩٠] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فكل موضع قُرنَ فيه التقوىٰ بالصبر اشتمل علىٰ الأمور الثلاثة، فإن حقيقة التقوىٰ فعلُ المأمور وتركُ المحظور.

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١١٦ - ١١٧)، و«الفواكه الدواني» ص ٥٨ - ٦٠، و«إعانة الطالبين» (١/ ١٥٩)، و«كشاف القناع» (٢/ ١٦٢).

الباب الثامن

ص٥٤

في انقسامه باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به

وهو ينقسم بهذا الاعتبار إلىٰ واجب، ومندوب، ومحظور، ومكروه، ومباح.

فالصبر علىٰ الواجب واجب وعن الواجب حرام، والصبر عن الحرام واجب وعليه حرام، والصبر علىٰ المستحب مستحب وعنه مكروه، والصبر عن المكروه مستحب وعليه مكروه، والصبر عن المباح مباح وعليه مباح، والله أعلم.

ص٥٩

الباب التاسع

في بيان تفاوت درجات الصبر

الصبر كما تقدم نوعان: اختياري، واضطراري.

والاختياري أكمل من الاضطراري، فإن الاضطراري يشترك فيه الناس، ويتأتَّىٰ ممن لا يتأتَّىٰ منه الصبر اختيارًا، ولذلك كان صبر يوسفَ الصديقِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن مطاوعة امرأةِ العزيز، وصبرُه علىٰ ما ناله من ذلك من الحبس والمكروه أعظمَ من صبره علىٰ ما ناله من إخوته لما ألقَوه في الجُبِّ وفرَّقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع العبيد، ومن الصبر الثاني أنشأ اللهُ له ما أنشأه من العزِّ والرفعة والمُلك والتمكين في الأرض.

وكذلك صبر الخليل والكليم، وصبر نوح، وصبر المسيح، وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم، صلىٰ الله عليهم أجمعين، كان صبرًا علىٰ الدعوة إلىٰ الله ومجاهدة أعداء الله، ولهذا سماهم الله «أولو العزم» وأمر رسوله أن يصبر صبرَهم فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وأولو العزم هم المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورىٰ: ١٣] وفي قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] كذلك قال ابن عباس وغيرُه من السلف.

فإن قيل: فأيُّ أنواع الصبر الثلاثة أكمل: الصبر علىٰ المأمور، أم الصبر عن

المحظور، أم الصبر علىٰ المقدور؟

قيل: الصبر المتعلِّق بالتكليف، وهو الأمر والنهي، أفضل من الصبر علىٰ مجرد القدَر؛ فإن هذا الصبر يأتي به البرُّ والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا بد لكل أحد من الصبر علىٰ القدر اختيارًا أو اضطرارًا، وأما الصبر علىٰ الأوامر والنواهي فصبر أتباع الرسل، وأعظمهم اتباعًا أصبرهم في ذلك.

وكل صبر في محله وموضعه أفضل، فالصبر عن الحرام في محله أفضل، وعلىٰ الطاعة في محلها أفضل.

فإن قيل: أي الصبرين أحب إلىٰ الله: صبرُ مَن يصبر علىٰ أوامره، أم صبر من يصبر عن محارمه؟

قيل: هذا موضع تنازع فيه الناس:

فقالت طائفة: الصبر عن المخالفات أفضل، لأنه أشقُّ وأصعب، فإن أعمال البِرّ يفعلها البرُّ والفاجر، ولا يصبر عن المخالفات إلا الصدِّيقون.

قالوا: وإن الصبر عن المحرمات صبر علىٰ مخالفة هوىٰ النفس، وهو أشقُّ شيء وأفضله.

قالوا: وإنَّ ترك المحبوب الذي تحبه النفوس دليل علىٰ أن من تُرِكَ لأجله أحبُّ إليه من نفسه وهواه، بخلاف فعل ما يحبه المحبوب فإنه لا يستلزم ذلك.

قالوا: وأيضًا فالمروءة والفتوَّة كلُّها في هذا الصبر؛ كما قال الإمام أحمد: «الفتوة ترك ما تهوىٰ لما تخشىٰ»[(١)] فمروءة العبد وفتوَّته بحسب هذا الصبر.

قالوا: وليس العجب ممن يصبر علىٰ الأوامر؛ فإن أكثرها محبوباتٌ للنفوس لِما فيها من العدل والإحسان والإخلاص والبر، وهذه محابٌّ للنفوس الفاضلة الزكية، بل العجبُ ممن يصبر عن المناهي التي أكثرُها محابٌّ للنفوس، فيترك المحبوبَ العاجلَ في هذه الدار للمحبوب الآجل في دار أخرىٰ، والنفس مُوكَّلة بحبِّ العاجل، فصبرها عنه مخالف لطبعها.

قالوا: وإنَّ المناهي لها أربعة دواعٍ تدعو إليها: نفس الإنسان، وشيطانه، وهواه، ودنياه؛ فلا يتركها حتىٰ يجاهدَ هذه الأربعة حقَّ الجهاد، وذلك أشقُّ شيء علىٰ النفوس وأمَرُّه.

قالوا: فالمناهي من باب حِمْيَة النفوس عن مشتهياتها ولذاتها، والحمية مع قيام داعي التناول وقوَّته من أصعب شيء وأشقِّه.

قالوا: ولذلك كان بابُ قربان النهي مسدودًا كلُّه، وباب الأمر إنما يُفعل منه المستطاع؛ كما قال النبي: «**إذا أمرتُكم بأمرٍ فأْتُوا منه ما استطعتم، وما نهيتُكم عنه فاجْتَنِبُوه**»[(٢)] فدل علىٰ أن **باب المنهيات أضيقُ من باب المأمورات**، وأنه لم يُرخَّص في ارتكاب شيءٍ منه كما رُخِّص في ترك بعض المأمورات للعجز والعذر.

---

(١) رواه القشيري عنه في «رسالته» ص ٣١٨.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

قالوا: ولهذا كانت عامة العقوبات من الحدود وغيرها علىٰ ارتكاب المنهيات، بخلاف ترك المأمور، فإن الله سبحانه لم يُرتِّب عليه حدًّا معينًا. قالوا: وأعظم المأمورات الصلاة، وقد اختُلِف هل عليه حدٌّ أم لا؟[1]

فصل

ص٦٦ أدلة من قال: إن الصبر علىٰ فعل المأمور أفضل

فهذا بعض ما احتجت به الطائفة.

وقالت طائفة أخرىٰ: بل الصبر علىٰ فعل المأمور أفضل وأجلُّ من الصبر علىٰ [ترك] المحظور؛ وأن فعل المأمور أحب إلىٰ الله من ترك المحظور، والصبر علىٰ أحب الأمرين إليه أفضل وأعلىٰ، **وبيان ذلك من وجوه**:

أحدها: أنَّ فعل المأمور مقصود لذاته، فهو مشروع شرْعَ المقاصد، فإن معرفةَ الله وتوحيدَه وعبوديتَه وحده والإنابةَ إليه والتوكلَ عليه وإخلاصَ العمل له ومحبتَه والرضا به والقيامَ في خدمته، هو الغاية التي خُلِق لها الخَلْق وثبت بها الأمر، وذلك أمر مقصود لنفسه.

والمنهيَّات إنما نُهي عنها لأنها صادَّة عن ذلك أو شاغلةٌ عنه أو معوِّقة أو مفوِّتة لكماله، ولذلك كانت درجاتها في النهي بحسب صدها عن المأمور وتعويقِها عنه وتفويتِها لكماله، فهي مقصودة لغيرها، والمأمور مقصود لنفسه.

الثاني: أنَّ المأمورات متعلِّقة بمعرفة الله وتوحيده وعبادته وشكره ومحبَّته والتوكل

(١) انظر: «البحر الرائق» (٢/ ٩٧)، و«التمهيد» لابن عبد البر (٤/ ٢٣٠- ٢٣١)، و«التهذيب» للشيرازي (١/ ٥١)، و«المغني» لابن قدامة (٣/ ٣٥١).

عليه والإنابة إليه، فمتعلَّقها ذات الرب تعالىٰ وأسماؤه وصفاته، ومتعلَّق المنهيات ذوات الأشياء المنهي عنها، والفرق من أعظم ما يكون.

الثالث: أن ضرورةَ العبد وحاجتَه إلىٰ فعل المأمور أعظمُ من ضرورته إلىٰ ترك المحظور، فإنه ليس إلىٰ شيء أضرَّ وأحوجَ وأشدَّ فاقةً منه إلىٰ معرفة ربه وتوحيده وإخلاص العمل له وإفراده بالعبودية والمحبة والطاعة، وضرورتُه إلىٰ ذلك أعظم من ضرورته إلىٰ نفَسِه ونَفْسِه وحياته، وأعظمُ من ضرورته إلىٰ غذائه الذي به قِوام بدنه، بل هذا لقلبه وروحه كالحياة والغذاء لبدنه، وهو إنما هو انسان بروحه وقلبه لا ببدنه وقالبه، كما قيل:

يا خادمَ الجسـم كم تشقىٰ بخدمته ... أتطلب الربح فيما فيه خسرانُ؟
اجهد لنفسك فاستكمل فضائلها ... فأنت بالنَّفْسِ لا بالجِسمِ إنسانُ[1]

وترك المنهي إنما شُرع له تحصيلًا لهذا الأمر الذي هو أضرُّ شيء وأحوجه وأفقره اليه.

الرابع: أن ترك المنهي من باب الحِمْية، وفعلَ المأمور من باب حفظِ القوة والغذاء الذي لا تقوم البِنْية بدونه، ولا تحصل الحياة إلا به، فقد يعيش الإنسانُ مع تركه الحمية وإن كان بدنه عليلًا أشدَّ ما يكون علةً، ولا يعيش بدون القوة والغذاء الذي يحفظها، فهذا مَثَل المأمورات والمنهيات.

الخامس: أن الذنوب كلها ترجع إلىٰ هذين الأصلين: تركِ المأمور وفعلِ المحظور،

---

(١) البيتان من قصيدة «عنوان الحِكَم» لأبي الفتح البُستي. انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي ص ٣٣٦، و«المنتظم» لابن الجوزي (٧/ ٧٣).

ولو فعل العبدُ المحظور كلَّه من أوله إلىٰ آخره حتىٰ أتىٰ من مأمور الإيمان بأدنىٰ أدنىٰ مثقالِ ذرةٍ منه نجا بذلك من الخلود في النار، ولو ترك كلَّ محظورٍ ولم يأت بمأمور الإيمان لكان مخلَّدًا في السعير.

فأين شيء مثاقيلُ الذرِّ منه تُخرِج من النار إلىٰ شيءٍ وزنُ الجبال منه أضعافًا مضاعفةً لا تقتضي الخلود في النار مع وجود ذلك المأمور أو أدنىٰ شيءٍ منه!

السادس: أن جميع المحظورات من أولها إلىٰ آخرها تسقط بمأمور التوبة، ولا تَسقط المأموراتُ كلُّها بمعصيةِ المخالَفة إلا بالشرك أو الموافاة عليه. ولا خلاف بين الأمة أن كل محظورٍ يسقط بالتوبة، واختلفوا هل تسقط الطاعة بالمعصية؟ وفي المسألة نزاع وتفصيلٌ ليس هذا موضعَه.

السابع: أن ذنب الأب كان بفعل المحظور، فكان عاقبته أن اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدىٰ، وذنبُ إبليس كان بترك المأمور، فكان عاقبته ما ذكر اللهُ سبحانه، وجعل هذا عبرة للذرية إلىٰ يوم القيامة.

الثامن: أن المأمور محبوب للرب تعالىٰ، والمنهيُّ مكروه له، وهو سبحانه إنما قدَّره وقضاه لأنه ذريعة إلىٰ حصول محبوبه من عبده ومن نفسه تعالىٰ؛ أما مِن عبده فالتوبة والاستغفار والخضوع والذل والانكسار وغير ذلك، وأما مِن نفسه فبالمغفرة والتوبة علىٰ العبد والعفو عنه والصفح والحلم والتجاوز عن حقه، وغيرِ ذلك مما هو أحبُّ إليه تعالىٰ من فواته بعدم تقدير ما يكرهه.

وإذا كان إنما قدَّر ما يكرهه لأنه يكون وسيلةً إلىٰ ما يحبُّه عُلم أن محبوبه هو الغاية،

ففوات محبوبه أبغضُ إليه وأكرَهُ له من حصول مبغوضه، بل إذا ترتَّب علىٰ حصول مبغوضه ما يحبه من وجهٍ آخر كان المبغوض مرادًا له إرادةَ الوسائلِ كما كان النهي عنه وكراهته كذلك، وأما المحبوب فمرادٌ إرادةَ المقاصد كما تقدم.

التاسع: أن ترك المحظور لا يكون قربةً ما لم يقارنه فعلُ المأمور، فلو ترك العبدُ كلَّ محظور لم يُثبه الله عليه حتىٰ يقارنه مأمورُ الإيمان، وكذلك المؤمن لا يكون تركه للمحظور قربةً حتىٰ يقارنه مأمورُ النية بحيث يكون تركه لله.

العاشر: أن بابَ المأمور الحسنةُ فيه بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، وبابَ المحظور السيئةُ فيه بمثلها.

الحادي عشر: أن جزاء المأمورات الثوابُ، وهو من باب الإحسان والفضل والرحمة، وجزاءَ المنهيات العقوبةُ، وهي من باب الغضب والعدل، ورحمته سبحانه تغلِب غضبَه، فما تعلق بالرحمة والفضل أحبُّ إليه مما تعلَّق بالغضب والعدل، وتعطيل ما تعلق بالرحمة أكره إليه من فعل ما تعلق بالغضب.

الثاني عشر: أن متعلَّق المأمورِ الفعلُ، وهو صفة كمال، بل كمال المخلوق من فِعاله، فإنه فَعَل فكَمُل. ومتعلَّق النهيِ التركُ، والترك عَدَم، والعدم المحض ليس بكمال، وإنما يكون كمالًا لما يتضمَّنه أو يستلزمه من الفعل الوجودي الذي هو سبب الكمال. وأما أن يكون مجردُ الترك الذي هو عدمٌ محضٌ كمالًا أو سببًا للكمال فلا.

مثال ذلك: أنَّه لو ترك السجود للصنم لم يكن كمالُه في مجرد هذا الترك ما لم يكن يسجد لله، وإلا فلو ترك السجود لله وللصنم لم يكن ذلك كمالًا. وكذلك لو ترك تكذيبَ

الرسول ومعاداتَه لم يكن بذلك مؤمنًا ما لم يفعل ضدَّ ذلك من التصديق والحبِّ له وموالاته وطاعته.

الثالث عشر: وهو أن الله سبحانه لم يعلِّق محبته إلا بأمرٍ وجودي أَمَر به إيجابًا أو استحبابًا، ولم يعلِّقها بالترك من حيث هو ولا في موضعٍ واحد، فإنه يحب التوابين، ويحب المحسنين، ويحب الشاكرين، ويحب الصابرين، ويحب المتطهرين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص، ويحب المتقين، ويحب الذاكرين، ويحب المتصدقين.

فهو سبحانه إنما علَّق محبَّته بأوامره، إذ هي المقصود من الخلق والأمر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فما خلَقَ الخلق إلا لقيام أوامره، وما نهاهم إلا عمَّا يصدهم عن قيام أوامره ويعوقهم عنها؛ فالنهي عنها من باب التكميل والتتمة للمأمور.

قالوا: فإذا تبيَّن أن فعل المأمور أفضل، فالصبر عليه أفضل أنواع الصبر، وبه يَسهُل عليه الصبرُ عن المحظور والصبرُ علىٰ المقدور، فإن الصبر الأعلىٰ يتضمَّن الصبر الأدنىٰ دون العكس.

وقد ظهر لك من هذا أن الأنواع الثلاثة متلازمة، وكل نوع منها يُعين علىٰ النوعين الآخرين، وإن كان من الناس مَن قوةُ صبره علىٰ المقدور، فإذا جاء الأمر والنهي فقوة صبره هناك ضعيفة، ومنهم من هو بالعكس من ذلك، ومنهم من قوة صبره في جانب الأمر أقوىٰ، ومنهم من هو بالعكس، والله أعلم.

ص٧٧

الباب العاشر

في انقسام الصبر إلى محمود ومذموم

الصبر ينقسم إلىٰ قسمين: قسم مذموم، وقسم ممدوح.

فالمذموم: الصبر عن الله وإرادته ومحبته وسير القلب إليه، فإن هذا الصبر يتضمَّن تعطيلَ كمال العبد بالكلية وتفويتَ ما خُلِق له.

وهذا كما أنه أقبح الصبر فهو أعظمُه وأبلغُه، فإنه لا صبر أبلغُ مِن صبر مَن يصبر عن محبوبه الذي لا حياة له بدونه البتة، كما أنه لا زهدَ أبلغُ من زهد الزاهد فيما أعدَّ الله لأوليائه من كرامته مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، فالزهد في هذا أعظمُ أنواع الزهد وأبلغُها.

❁❁❁❁❁

ص٨٠
الصبر المحمود نوعان

فصل

وأما الصبر المحمود فنوعان: صبر لله وصبر بالله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] وقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقد تنازع الناس أيُّ الصبرين أكمل؟

فقالت طائفة: الصبر له أكمل، فإنَّ ما كان لله أكملُ مما كان بالله، فإنَّ ما كان له فهو

غاية وما كان به فهو وسيلة، **والغايات أشرف من الوسائل، ولذلك وجب الوفاء بالنذر إذا كان تبـرُّرًا وتقرُّبًا إلىٰ الله لأنه نذْر له، ولم يجب الوفاء به إذا خرج مخرج النهي لأنه خُلْفٌ.**

فما كان له سبحانه فهو متعلِّق بألوهيته، وما كان به فهو متعلِّق بربوبيته، وما تعلَّق بألوهيته أشرف مما تعلق بربوبيته، ولذلك كان توحيد الإلهية هو المنجي من الشرك دون توحيد الربوبية بمجرَّده، فإن عُبَّاد الأصنام كانوا مُقرِّين بأن الله وحده خالقُ كلِّ شيء وربُّه ومليكُه، ولكن لمَّا لم يأتوا بتوحيد الإلهية، وهو عبادته وحده لا شريك له، لم ينفَعْهم توحيدُربوبيته.

وقالت طائفة: الصبر بالله أكمل، بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ فأمره بالصبر، والمأمور به هو الذي يُفعل لأجله، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التي تقدَّمَتْها، أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به.

وذلك يتضمن أمرين: الاستعانة، والمعية الخاصة التي تدل عليها باء المصاحبة، كقوله: «**فبي يسمع، وبي يُبصر، وبي يَبطِش، وبي يمشي**»[1] وليس المراد بهذه الباء مجرَّدَ الاستعانة، فإن هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصي، فإن ما لا يكون بالله لا يكون، بل هي باء المصاحبةِ والمعيَّةِ التي صرَّح بمضمونها في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

(١) يذكره شيخ الإسلام في كتبه والمؤلف تتمةً لحديث الولي الذي عند البخاري (٦٥٠٢)، ولكن ليست فيه هذه الزيادة. وقد ذكرها الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٢٦٥، ٣٨٢) بدون سند، وهي في معنىٰ قوله: «كنت سمعه الذي يسمع به...» إلخ في حديث الولي.

[الأنفال: ٤٦] وهي المعيةُ الحاصلةُ لعبدِه الذي تقرَّب إليه بالنوافل حتىٰ صار محبوبًا له، فبه يسمع وبه يبصر، وكذلك به يصبر، فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك إلا والله معه، ومتىٰ كان كذلك أمكنه الصبرُ له وتحمُّلُ الأثقال لأجله.

والمقصود: إنما هو ذكر الصبر بالله، وأن العبد بحسب نصيبه من معية الله له يكون صبره، وإذا كان الله معه أمكن أن يأتي من الصبر بما لا يأتي به غيره.

قال أبو علي: فاز الصابرون بعزِّ الدارين؛ لأنهم نالوا من الله معيته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[1] [البقرة: ١٥٣، والأنفال: ٤٦].

وهاهنا سر بديع وهو: أن من تعلَّق بصفة من صفات الرب تعالىٰ أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته إليه، والرب تعالىٰ هو الصبور، بل لا أحد أصبرُ علىٰ أذىٰ يسمعه منه.

وقد قيل: إن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داود: «**تخلَّقْ بأخلاقي، فإن من أخلاقي أني أنا الصبور**»[2].

والرب تعالىٰ يُحب أسماءَه وصفاتِه، ويحب مقتضىٰ صفاته وظهور آثارها في العبد، فإنه جميل يحب الجمال، عفوٌّ يحب أهل العفو، كريم يحب أهل الكرم، عليم يحب أهل العلم، وتر يحب الوتر، قوي، والمؤمن القويُّ أحبُّ إليه من المؤمن الضعيف، صبور يحب الصابرين، محسن يحب المحسنين، شكور يحب

(١) انظر قول أبي علي الدَّقَّاق في «الرسالة القشيرية» (ص ٢٥٧).
(٢) انظر: «الرسالة القشيرية» (ص ٢٥٧).

الشاكرين؛ فإذا كان سبحانه يحب المتصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف، فهذه المعية الخاصة عبَّر عنها بقوله: «**كنت له سمعًا، وبصرًا، ويَدًا، ومؤيِّدًا**»[1].

---

(١) جزء من حديث الولي، أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الأولياء» رقم (١) من حديث أنس، وضعفه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» رقم (٢٧). وبمعناه رواية أبي هريرة لحديث الولي عند البخاري (٦٥٠٢) بلفظ: «**كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويده التي يَبطِشُ بها، ورِجله التي يمشي بها، وإن سألني لأُعطِينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه**».

ص٩٤

الباب الحادي عشر

في الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام

كلُّ أحدٍ لا بد أن يصبر علىٰ بعض ما يكره إما اختيارًا وإما اضطرارًا، فالكريم يصبر اختيارًا لعلمه بحسن عاقبة الصبر، وأنه يُحمَد عليه ويُذم علىٰ الجزع، وأنه إن لم يصبر لم يرُدَّ الجزعُ عليه فائتًا، ولم ينزع عنه مكروهًا، وأن المقدور لا حيلة في دفعه، وما لم يُقدَّر لا حيلة في تحصيله، فالجزع خُرْقٌ محضٌ ضرُّه أقرب من نفعه، قال بعض العقلاء: «العاقل عند نزول المصيبة يفعل ما يفعلُه الأحمق بعد شهر» كما قيل:

رأى الأمر يُفضي إلى آخِر فصيّر آخره أولا[1]

فإذا كان آخِرُ الأمرِ الصبرَ، والعبدُ غيرُ محمود، فما أحسَنَ به أن يستقبل الأمر في أوله بما يستدبره به الأحمقُ في آخره.

وقال بعض العقلاء: «من لم يصبر صبرَ الكرام سَلا سَلْوَ البهائم»[2].

فالكريم ينظر إلىٰ المصيبة، فإن رأىٰ الجزع يردُّها ويدفعها فهذا قد ينفعه الجزع، وإن كان الجزع لا ينفعه فإنه يجعل المصيبة مصيبتين.

❖❖❖❖❖

(١) البيت لمحمود الوراق في «طبقات الشعراء» لابن المعتز.
(٢) منسوب لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: «التذكرة الحمدونية» (٤/ ٢١٠).

فصل

ص٩٥
اللئيم يصبر اضطرارًا

وأما اللئيم فإنه يصبر اضطرارًا، فإنه يحوم حول ساحة الجزع فلا يراها تُجدي عليه شيئًا فيصبر صبر المُوثَق للضرب.

وأيضًا فالكريم يصبر في طاعة الرحمن، واللئيم يصبر في طاعة الشيطان؛ فاللئام أصبر الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم، وأقل الناس صبرًا في طاعة ربهم.

ص٩٦

الباب الثاني عشر
في الأسباب التي تعين على الصبر

لما كان الصبر مأمورًا به جعل الله سبحانه له أسبابًا تعين عليه وتوصل إليه، وكذلك ما أمر الله سبحانه بأمرٍ إلا أعان عليه ونصب له أسبابًا تمدُّه وتُعين عليه، كما أنه ما قدَّر داءً إلا قدر له دواءً، وضمن الشفاء باستعماله.

فالصبر وإن كان شاقًّا كريهًا علىٰ النفوس فتحصيله ممكن، وهو يتركب من مفردين: العلم والعمل، فمنهما تُركَّب جميع الأدوية التي تُداوىٰ بها القلوب والأبدان، فلا بدَّ من جزء علمي وجزء عملي، فمنهما يركب هذا الدواء الذي هو أنفع الأدوية.

فأما الجزء العلمي فهو إدراك ما في المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال، وإدراك ما في المحظور من الشرِّ والضرِّ والنقص، فإذا أدرك هذين العِلْمَين كما ينبغي أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمَّة العالية والنّخوة والمروءة الإنسانية، وضَمَّ هذا الجزء إلىٰ هذا الجزء، ومتىٰ فعل ذلك حصل له الصبر وهانت عليه مشاقُّه وحَلَت له مرارتُه وانقلب ألمُه لذةً.

وقد قيل: «إن الصبر: مصارعةُ باعث العقل والدين لباعثِ الهوىٰ والنفس» وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما علىٰ الآخر، فالطريق فيه تقوية من أردنا أن تكون الغلبة له وتضعيف الآخر، كالحال مع القوة والمرض سواء.



ص١٠٢ تقوية باعث الدين يكون بأمور

فصل

وأما تقوية باعث الدين، فإنه يكون بأمور:

أحدهما: إجلال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يُعصىٰ وهو يرىٰ ويسمع، ومن قام بقلبه مشهدُ إجلاله لم يطاوِعْه قلبُه لذلك البتة.

الثاني: مشهد محبته سبحانه، فيترك معصيته محبةً له، فـ«إن المحب لمن يحبُّ مطيعُ» وأفضل التركِ تركُ المحبين، كما أن أفضلَ الطاعة طاعةُ المحبين، فبين ترك المُحبِّ وطاعته وترك مَن يَخاف العذاب وطاعته بونٌ بعيد.

الثالث: مشهد النعمة والإحسان، فإن الكريم لا يعامِلُ بالإساءة مَن أحسن إليه، وإنما يفعل هذا لئامُ الناس، فليمنعه مشهد إحسان الله ونعمته عن معصيته حياءً منه أن يكون خيرُ الله وإنعامُه نازلًا إليه، ومخالَفاتُه ومعاصيه وقبائحُه صاعدةً إلىٰ ربه، فمَلَكٌ ينزل بهذا وملكٌ يَعرُج بهذا، فأقبِحْ بها مِن مقابلة!

الرابع: مشهد الغضب والانتقام، فإن الرب تعالىٰ إذا تمادىٰ العبدُ في معصيته غضب، وإذا غضب لم يَقُم لغضبه شيء، فضلًا عن هذا العبد الضعيف.

الخامس: مشهد الفوات، وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة، وما يحدُث له بها من كلِّ اسمٍ مذمومٍ عقلًا وشرعًا وعرفًا، وتزول عنه من الأسماء الممدوحة شرعًا وعقلًا وعرفًا.

ويكفي في هذا المشهد مشهد فوات الإيمان الذي أدنىٰ مثقالُ ذرةٍ منه خيرٌ من الدنيا وما فيها أضعافًا مضاعفة، فكيف يبيعه بشهوةٍ تَذهب لذتُها وتبقىٰ سوءُ مغبَّتها! تذهب الشهوة وتبقىٰ الشقوة. وقد صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[1].

السادس: مشهد القهر والظَّفَر، فان قهر الشهوة والظفر بالشيطان له حلاوة ومسرَّة وفرحة عند من ذاق ذلك أعظمُ من الظفر بعدوِّك من الآدميين وأحلىٰ موقعًا وأتمُّ فرحةً. وأما عاقبته فأحمدُ عاقبةٍ، وهو كعاقبةِ شرب الدواء النافع الذي أزال داء الجسد، وأعاده إلىٰ صحته واعتداله.

السابع: مشهد العِوَض، وهو ما وعَد الله سبحانه به مِن تعويضِ مَن ترك المحارم لأجله، ونهىٰ نفسه عن هواها، ولْيوازن بين العوض والمعوَّض، فأيُّهما كان أولىٰ بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه.

الثامن: مشهد المعيَّة، وهي نوعان: معية عامة، ومعية خاصة، فالعامة اطلاع الرب تعالىٰ عليه، وكونه بعينه لا تخفي عليه حاله، وقد تقدم.

والمقصود هنا المعية الخاصة، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] وقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وقولِه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فهذه المعية الخاصة خير له وأنفعُ في دنياه وآخرته مِن قضاء وَطَرِه ونيلِ شهوتِه علىٰ التمام من أول العمر إلىٰ آخره، فكيف يُؤثر عليها لذةً مُنغّصةً

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

مُنكّدةً في مدة يسيرة من العمر، إنما هي كأحلام نائمٍ أو كظلٍّ زائل!

التاسع: مشهدُ المُغافصة[(١)] والمُعاجلة، وهو أن يخاف أن يُغافِصَه الأجلُ، فيأخذه الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ غِرَّة، فيُحال بينه وبين ما يشتهي من لذات الدنيا، وبينه وبين ما يشتهي من لذات الآخرة، فيا لَها من حسرةٍ ما أمرَّها وما أصعَبها، لكن ما يعرفها إلا من جربها.

وفي بعض الكتب القديمة: «يا مَن لا يأمن علىٰ نفسه طرفةَ عينٍ ولا يتم له سرورُ يومٍ، الحذرَ الحذرَ»[(٢)].

العاشر: مشهد البلاء والعافية، فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوبَ وعواقبَها، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها؛ فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عُوفيت أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مَرِضت أبدانهم.

وقال بعض أهل العلم في الأثر المروي: «إذا رأيتم أهلَ البلاء فاسألوا اللهَ العافيةَ»: إن أهل البلاء المُبتَلَون بمعاصي الله والإعراض والغفلة عنه[(٣)].

وهذا وإن كان أعظمَ البلاء، فاللفظُ يتناول أنواعَ المُبتَلَينَ في أبدانهم وأديانهم، والله أعلم.

الحادي عشر: أن يُعوِّد باعثَ الدين ودواعيَه مصارعةَ داعي الهوىٰ ومقاومتَه علىٰ

---

(١) غافص الرجل مغافصة وغِفاصًا: أخذه علىٰ غرَّة. «لسان العرب» (٧/ ٦١).

(٢) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» رقم (٥٢١) عن وهب بن مُنبّه بنحوه.

(٣) قاله الشبلي كما في «تاريخ بغداد» (١٢/ ١٦١). والأثرُ مرويٌّ عن عيسىٰ بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ كما في «الزهد» لهنَّاد بن السَّري (١١٢٢).

التدريج قليلًا قليلًا حتىٰ يدرك لذة الظفر، فتقوىٰ حينئذ هِمَّته.

فإن من ذاق لذةَ شيءٍ قويَتْ همَّتُه في تحصيله، والاعتياد لممارسة الأعمال الشاقة يزيد القُوىٰ التي تصدر عنها تلك الأعمال، ولذلك تجد قوىٰ الحمَّالِين وأربابِ الصنائع الشاقة تتزايد بخلاف البزَّاز[1] والخياط ونحوهما. ومن ترك المجاهدة بالكلية ضَعُف فيه باعثُ الدين وقوي فيه باعثُ الشهوة، ومن عوَّد نفسه مخالفةَ الهوىٰ غلبه متىٰ أراد.

الثاني عشر: كفُّ الباطن عن حديث النفس، وإذا مرَّت به الخواطر نفاها ولا يُؤويها ويُساكنها، فإنها تصير مُنًىٰ، وهي رؤوسُ أموال المفاليس. ومتىٰ ساكن الخواطر صارت أماني، ثم تقوىٰ فتصير همومًا، ثم تقوىٰ فتصير إراداتٍ، ثم تقوىٰ فتصير عزمًا يقترن به المراد. فدفع الخاطر الأول أسهلُ وأيسرُ من دفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته.

الثالث عشر: قطع العلائق والأسباب التي تدعوه إلىٰ موافقة الهوىٰ، وليس المراد ألا يكون له هوىٰ، بل يصرف هواه إلىٰ ما ينفعه ويستعمله في تنفيذ مراد الرب تعالىٰ، فإن ذلك يدفع عنه شرَّ استعماله في معاصيه، فإن كلَّ شيءٍ من الإنسان يستعمله لله فإن الله يقيه شرَّ استعماله لنفسه وللشيطان، وما لا يستعمله لله استعمله لنفسه وهواه ولا بد.

فالعلم إن لم يكن لله كان للنفس والهوىٰ، والعملُ إن لم يكن لله كان للرِّياء والنفاق، والمالُ إن لم يُنفَق لله أُنفِق في طاعة الشيطان والهوىٰ، والجاه إن لم يُستعمل لله استَعمل صاحبَه في هواه وحظوظه، والقوة إن لم يستعملها في أمر الله استعملَتْه في معصيته.

الرابع عشر: صرف الفكر إلىٰ عجائب آيات الله التي ندب عباده إلىٰ التفكُّر فيها،

(١) البزاز: بائع البزِّ وهي الثياب. «لسان العرب» (٥/ ٣١١- ٣١٢).

وهي آياته المتلوَّة وآياته المخلوقة، فإذا استولىٰ ذلك علىٰ قلبه دفع عنه محاضرة الشيطان ومحادثته ووسواسه. وما أعظَمَ غبنَ من أمكنه أن لا يزال مُحاضرَ الرحمن ورسوله والصحابة، فرغب عن ذلك إلىٰ محاضرة الشيطان من الإنس والجنِّ! فلا غبنَ بعد هذا الغبن، والله المستعان.

الخامس عشر: التفكر في الدنيا وسرعةِ زوالها وقربِ انقضائها، فلا يرضىٰ لنفسه أن يتزوَّد منها إلىٰ دار بقائه وخلوده أخسَّ ما فيها وأقلَّه نفعًا إلا ساقطُ الهمة دنيءُ المروءة ميتُ القلب، فإنَّ حسرته تشتدُّ إذا عايَنَ حقيقة ما تزوَّده وتبيَّن له عدمُ نفعه له، فكيف إذا كان زاده ما يُعذَّب به ويناله بسببه غايةُ الألم! بل إذا تزوَّد ما ينفعه وترك ما هو أنفعُ منه كان حسرةً عليه.

السادس عشر: تعرُّضه إلىٰ مَن القلوب بين أصبعيه، وأزِمَّة الأمور بيديه، وانتهاءُ كل شيء إليه، علىٰ الدوام، فلعلَّه أن يُصادف أوقاتَ النفحات، كما في الأثر المعروف: «إن لله في أيام دهره نفحاتٍ فتعرَّضوا لنفحاته، واسألوا الله أن يستُر عوراتِكم، ويُؤمِنَ روعاتِكم»[1].

ولعله في كثرة تعرُّضه يصادفُ ساعةً من الساعات التي لا يسأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه، فمن أُعطي منشورَ الدعاء أُعطي الإجابة، فإنه لو لم يُرد إجابته لما ألهمه دعاءَه، كما قيل:

لو لـم تُـرِد نَيلَ مـا أرجـو وأطلبه   مِن جُود كفِّك ما عوَّدتَني الطَّلبا

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» رقم (٣٤٥٩٤) موقوفًا علىٰ أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ص١١٤

الباب الثالث عشر

في بيان أن الإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال

ما دام قلمُ التكليف جاريًا عليه لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال، فإنه بين أمرٍ يجب عليه امتثالُه وتنفيذُه، ونهيٍ يجب عليه اجتنابُه وتركُه، وقَدَرٍ يجب عليه الصبرُ عليه اتفاقًا، ونعمةٍ يجب عليه شكرُ المنعم عليها؛ وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم له إلىٰ الممات.

وكل ما يَلقىٰ العبدُ في هذه الدار لا يخلو من نوعين:

أحدهما: يوافق هواه ومراده.

والآخر: يخالفه.

وهو يحتاج إلىٰ الصبر في كل منهما.

أما النوع الموافق لغرضه: كالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذِّ المباحة، فهو أحوج شيءٍ إلىٰ الصبر فيها من وجوه:

أحدها: ألا يركن إليها، ولا يغترَّ بها، ولا تحمله علىٰ البَطَر والأَشَر والفرح المذموم الذي لا يحبُّ الله أهلَه.

الثاني: ألا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها، فإنها تنقلب إلىٰ أضدادها، فمن بالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلىٰ ضده وحُرِم الأكلَ والشرب والجماع.

الثالث: أن يصبر علىٰ أداء حقِّ الله فيها، ولا يُضيعه فيُسْلَبَها.

الرابع: أن يصبر عن صرفها في الحرام، فلا يُمكِّن نفسه من كل ما تريده منها، فإنها تُوقعه في الحرام، فإن احترز كل الاحتراز أوقعَتْه في المكروه؛ ولا يصبرُ علىٰ السرَّاء إلا الصدِّيقون.

قال بعض السلف: «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر علىٰ العافية إلا صدّيق».

وقال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ابتُلينا بالضرَّاء فصبرنا، وابتُلينا بالسرَّاء فلم نصبر»[1].

ولذلك حذَّر اللهُ سبحانه عبادَه من فتنة المال والأزواج والأولاد، فقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

وأما النوع الثاني المخالفُ للهوىٰ، فلا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أوْ لا يرتبط أولُه باختياره كالمصائب، أو يرتبط أولُه باختياره ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه، فهاهنا ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يرتبط باختياره، وهو جميع أفعاله التي تُوصَف بكونها طاعةً أو معصية.

فأما الطاعة فالعبد محتاج إلىٰ الصبر عليها؛ لأن النفس بطبعِها تَنفِرُ عن كثير من العبودية؛ أما في الصلاة فلِما في طبعها من الكسل وإيثار الراحة، وأما الزكاة فلِما في طبعها

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٤) وحسَّنه.

من البخل والشح، وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعًا.

ويحتاج العبد هاهنا إلىٰ الصبر في ثلاثة أحوال:

أحدها: قبل الشروع فيها بتصحيح النية والإخلاص، وتجنُّب دواعي الرياء والسمعة، وعقدِ العزم علىٰ توفية المأمور به.

الحالة الثانية: الصبر حالَ العمل، فيلازم الصبر عن دواعي التقصير فيه والتفريط، ويلازم الصبر علىٰ استصحاب ذكر النية وعلىٰ حضور القلب بين يدي المعبود، وألا ينساه في أمره، **فليس الشأن في فعل المأمور، بل الشأنُ كلُّ الشأنِ ألا ينسىٰ الآمِرَ حالَ الإتيان بأمره،** بل يكون مستصحبًا لذكره في أمره.

فهذه عبادة العبيد المخلصين، فهو محتاج إلىٰ الصبر علىٰ توفية العبادة حقَّها بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتها وسننها، وإلىٰ الصبر علىٰ استصحاب ذكر المعبود فيها وألا يشتغل عنه بعبادته، فلا يُعطِّلُه حضورُه مع الله بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته، ولا يُعطِّلُه قيامُ الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه.

الحالة الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل وذلك من وجوه:

أحدها: أن يُصبِّر نفسه عن الإتيان بما يبطله، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] فليس الشأن في الإتيان بالطاعة، إنما الشأن في حفظها مما يبطلها.

الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعُجب بها والتكبُّر والتعظُّم بها، فإن هذا أضرُّ عليه من كثير من المعاصي الظاهرة.

الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلىٰ ديوان العلانية، **فإن العبد يعمل العمل سرًّا بينه وبين الله سبحانه فيُكتب في ديوان السر، فإذا تحدَّث به نُقل إلىٰ ديوان العلانية، فلا يظنَّ أن بساط الصبر انطوىٰ بالفراغ من العمل.**

❖❖❖❖❖

ص١١٩
الصبر عن المعاصي

فصل

وأما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر، وأعظم ما يعين عليه قطعُ المألوفات، ومفارقةُ الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة، وقطعُ العوائد، فإن العادة طبيعة خامسة، فإذا انضافت الشهوة إلىٰ العادة تظاهر جُندان من جند الشيطان علىٰ جند الله، فلا يقوىٰ باعثُ الدين علىٰ قهرهما.

❖❖❖❖❖

القسم الثاني: ما لا يدخل تحت الاختيار

فصل

القسم الثاني: ما لا يدخل تحت الاختيار، وليس للعبد حيلة في دفعه، كالمصائب التي لا صُنعَ للعبد فيها، كموت مَن يعِزُّ عليه، وسرقة ماله، ومرضه، ونحو ذلك، وهذا نوعان:

أحدهما: ما لا صنع لآدميٍّ فيه.

والثاني: ما أصابه من جهة آدميٍّ مثلِه، كالسبِّ والضرب وغيرهما.

فالنوع الأول أربع مقامات:

أحدها: مقام العجز والشكوىٰ والتسخُّط، وهذا ما لا يفعله إلا أقلُّ الناس عقلًا ودينًا ومروءة، وهو أعظم المصيبتين.

المقام الثاني: مقام الصبر، إما لله وإما للمروءة والإنسانية.

المقام الثالث: مقام الرضا، وهو أعلىٰ من مقام الصبر، وفي وجوبه نزاع، والصبر متفق علىٰ وجوبه.

المقام الرابع: مقام الشكر، وهو أعلىٰ من مقام الرضا، فإنه يشهد البليَّةَ نعمةً، فيشكر المُبتليَ عليها.

وأما النوع الثاني: وهو ما أصابه من قِبَل الناس فله فيه هذه المقامات، وتنضاف إليها أربعةٌ أُخَر:

أحدها: مقام العفو والصفح.

الثاني: مقام سلامة القلب من إرادة التشفي والانتقام، وفراغه من ألم مطالعة الجناية كلَّ وقتٍ وضيقه بها.

الثالث: مقام شهود القدر، وأنه وإن كان ظالمًا بإيصال هذا الأذىٰ إليك، فالذي قدَّره عليك وأجراه علىٰ يد هذا الظالم ليس بظالم، وأذىٰ الناس مثلُ الحَرِّ والبرد لا حيلةَ في دفعه، فالمتسخط من أذىٰ الحرِّ والبرد غير حازم، والكلُّ جارٍ بالقدر، وان اختلفت طرقه وأسبابه.

المقام الرابع: مقام الإحسان إلىٰ المسيء ومقابلة إساءته بإحسانك. وفي هذا المقام من الفوائد والمصالح ما لا يعلمه إلا الله، فإن فات العبدَ هذا المقامُ العالي فلا يرضىٰ لنفسه بأخسِّ المقامات وأسفلها.

❊❊❊❊❊

فصل

ص١٢١ القسم الثالث: ما يكون وروده باختياره

القسم الثالث: ما يكون وروده باختياره، فإذا تمكَّن لم يكن له اختيار ولا حيلة في دفعه، وهذا كالعشق أوَّلُه اختيار وآخره اضطرار، وكالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التي لا حيلة في دفعها بعد مباشرة أسبابها، كما لا حيلة في دفع السُّكْر بعد تناول المُسكِر.

فهذا كان فرضه الصبر عنه في أوله، فلما فاته بقي فرضه الصبر عليه في آخره، وألا يطيع داعي هواه ونفسه.

وللشيطان هاهنا دسيسة عجيبة، وهي أن يخيِّل إليه أنَّ نيل بعض ما مُنع منه قد يتعيَّن عليه أو يباح له علىٰ سبيل التداوي، وغايتَه أن يكون كالتداوي بالخمر والنجاسة وقد أجازه كثير من الفقهاء.

وهذا من أعظم الجهل، فإن هذا التداوي لا يزيل الداء بل يزيده ويُقوِّيه، وكم مِمَّن تداوىٰ بذلك فكان هلاكُ دينه ودنياه في هذا الدواء! بل الدواء النافع لهذا الداء الصبر والتقوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ص١٢٥

الباب الرابع عشر

في بيان أشق الصبر على النفوس

مشقة الصبر بحسب قوة الداعي إلىٰ الفعل وسهولته علىٰ العبد، فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشقَّ شيءٍ علىٰ الصابر، وإن فُقدا معًا سَهُل الصبر عنه، وإن وُجِد أحدُهما وفُقِد الآخر سهُل الصبر من وجهٍ وصَعُب من وجه.

فمن لا داعي له إلىٰ القتل والسرقة وشرب المسكر وأنواع الفواحش، ولا هو سهل عليه، فصَبْرُه عنه مِن أيسر شيء وأسهله، ومن اشتد داعيه إلىٰ ذلك وسَهُل عليه فعلُه، فصبره عنه أشقُّ شيءٍ عليه.

ولهذا كان صبرُ السلطان عن الظلم، وصبرُ الشاب عن الفاحشة، وصبر الغنيِّ عن تناول اللذات والشهوات عند الله بمكان.

وفي «المسند» وغيره عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«عَجِب ربُّك من شابٍّ ليست له صَبْوة»**[1].

ولذلك استحقَّ السبعةُ المذكورون في الحديث[2] أن يُظِلَّهم الله في ظل عرشه لكمال صبرهم ومشقته؛ فإن صبرَ الإمام المتسلط علىٰ العدل في قَسْمه وحكمه ورضاه وغضبه، وصبرَ الشاب علىٰ عبادة الله ومخالفة هواه، وصبرَ الرجل علىٰ ملازمة المسجد، وصبرَ المتصدِّق علىٰ إخفاء الصدقة حتىٰ عن بعضه، وصبرَ

(١) «المسند» (٤/ ١٥١) بنحوه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٨٤٣). «ليست له صبوة» أي: ليس له ميل إلىٰ الهوىٰ. «النهاية» (٣/ ١١).

(٢) حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

المدعو إلىٰ الفاحشة مع جمال الداعي ومنصبه، وصبرَ المتحابَّين في الله علىٰ ذلك في حال اجتماعهما وافتراقهما، وصبرَ الباكي من خشية الله علىٰ كتمان ذلك و[عدم] إظهاره للناس - من أشق الصبر.

ولهذا كانت عقوبةُ الشيخ الزاني والمَلِك الكذَّاب والفقير المختال أشدَّ العقوبة[1] لسهولة الصبر عن هذه المحرمات عليهم لضَعفِ دواعيها في حقهم، فكان تركهم الصبر عنها دليلًا علىٰ تمرُّدهم علىٰ الله وعتوِّهم عليه.

ولهذا كان الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدَّة الداعي إليهما وسهولتهما، **فإن معاصي اللسان فاكهةُ الإنسان؛ كالنميمة، والغيبة، والكذب، والمراء، والثناء علىٰ النفس تعريضًا وتصريحًا، وحكاية كلام الناس**، والطعن علىٰ من يبغضه، ومدح من يحبه ونحو ذلك، فتتفق قوةُ الداعي وتيسُرُ حركةِ اللسان، فيَضْعُف الصبر، ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ: «**أَمْسِكْ عليك لسانَك**» فقال: وإنا لمؤاخَذُون بما نتكلم به؟ فقال: «**وهل يَكبُّ الناسَ في النار علىٰ مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم!**»[2].

(١) يشير إلىٰ حديث أبي هريرة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثة لا يكلِّمهم الله يومَ القيامة ولا يزِّكيهم ولهم عذاب أليم: شيخٌ زانٍ، ومَلِك كذَّاب، وعائل مستكبر**». أخرجه مسلم (١٠٧).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ص١٢٩

الباب الخامس عشر

في ذكر ما ورد في الصبر من نصوص الكتاب العزيز

قال الإمام أحمد رحمه الله: ذكر الله الصبر في القرآن في تسعين موضعًا. انتهىٰ.

ونحن نذكر **الأنواع التي سيق فيها الصبر**، وهي عدة أنواع:

أحدها: الأمر به كقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨].

الثاني: النهي عما يضادُّه، كقوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٣٩] وقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

وبالجملة فكل ما نهي عنه فإنه يضاد الصبر المأمور به.

الثالث: تعليق الفلاح به، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فعلَّق الفلاح بمجموع هذه الأمور.

الرابع: الإخبار عن مضاعفة أجر الصابر علىٰ غيره، كقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص: ٥٤] وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قال سليمان بن القاسم: «كلُّ عملٍ يُعرف ثوابُه إلا الصبر، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] قال: «كالماء المنهمر»»[1].

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصبر» رقم (٢٠).

الخامس: تعليق الإمامة في الدين به وباليقين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

السادس: ظفرهم بمعيَّة الله سبحانه لهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

السابع: أنه جمع للصابرين ثلاثةَ أمورٍ لم يجمَعْها لغيرهم، وهي الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

الثامن: أنه سبحانه جعل الصبر عونًا وعدَّةً، وأمر بالاستعانة به فقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] فمن لا صبر له لا عون له.

التاسع: أنه سبحانه علَّق النصر بالصبر والتقوىٰ، فقال: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

ولهذا قال النبي: «**واعلَمْ أنَّ النصرَ مع الصبر**»[١].

العاشر: أنه سبحانه جعل الصبر والتقوىٰ جُنَّةً عظيمةً من كيد العدو ومكره، فما استجَنَّ العبدُ من ذلك بجُنةٍ أعظمَ منهما، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٠٧)، وصححه الحاكم (٣/ ٥٤٢).

يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

الحادي عشر: أنه سبحانه أخبر أن ملائكته تُسلِّم عليهم في الجنة بصبرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

الثاني عشر: أنه سبحانه أباح لهم أن يُعاقِبوا بمثل ما عُوقبوا به، ثم أقسم قسمًا مؤكدًا غايةَ التأكيد أن صبرهم خير لهم، فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

فتأمل هذا التأكيدَ بالقسمِ المدلولِ عليه بالواو، ثم باللام بعده، ثم باللام التي في الجواب.

الثالث عشر: أنه سبحانه رتَّب المغفرة والأجرَ الكبيرَ علىٰ الصبر والعمل الصالح، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١].

الرابع عشر: أنه سبحانه جعل الصبر علىٰ المصائب من عزم الأمور، أي مما يُعزم عليه من الأمور التي إنما يعزم علىٰ أجلِّها وأشرفها، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورىٰ: ٤٣] وقال لقمانُ لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

الخامس عشر: أنه سُبحانه وعدَ المؤمنين بالنصر والظفر، وهي كلمتُه التي سبقت لهم، وهي الكلمة الحسنىٰ، وأخبر أنه إنما نالهم ذلك بالصبر، فقال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

السادس عشر: أنه سبحانه علَّق محبته بالصبر، وجعلها لأهله، فقال تعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

السابع عشر: أنه سبحانه أخبر عن خصال الخير أنه لا يُلقَّاها إلا الصابرون في موضعين من كتابه:

في سورة القصص في قصة قارون، وأن الذين أوتوا العلم قالوا للذين تَمنَّوا مثل ما أوتىٰ: ﴿ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠].

وفي سورة حم السجدة حيث أمر العبد أن يدفع بالتي هي أحسن، فإذا فعل ذلك صار الذي بينه وبينه عداوة كأنه حبيب قريب، ثم قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ [فصلت: ٣٥].

الثامن عشر: أنه سبحانه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبَّار الشكور، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [إبراهيم: ٥].

وقال تعالىٰ في لقمان: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [لقمان: ٣١].

وقال تعالىٰ في قصة سبأ: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [سبأ: ١٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورىٰ:٣٢-٣٣].

فهذه أربع مواضع في القرآن تدل علىٰ أن آياتِ الرب إنما يَنتفع بها أهلُ الصبر والشكر.

التاسع عشر: أنه أثنىٰ علىٰ عبده أيوبَ بأحسن الثناء علىٰ صبره، فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] فأطلق عليه قوله: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ لكونه وجده صابرًا، وهذا يدل علىٰ أن من لم يصبر فإنه بئس العبد.

العشرون: أنه سبحانه حكم بالخسران حكمًا عامًّا علىٰ كل من لم يكن من أهل الحق والصبر، وهذا يدل علىٰ أنه لا رابح سواهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

قال الشافعي: «لو فكَّر الناس كلهم في هذه الآية لوَسِعَتْهم».

وذلك أن العبد كمالُه في تكميل قوَّتيه: قوةِ العلم وقوةِ العمل، وهما الإيمان والعمل الصالح، وكما هو محتاج إلىٰ تكميل نفسه، فهو محتاج إلىٰ تكميل غيره، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وآخيَّةُ ذلك وقاعدته وساقه الذي يقوم عليه إنما هو الصبر.

الحادي والعشرون: أنه سبحانه خصَّ أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصَّوا بهما غيرَهم، فقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد:١٧-١٨].

الثاني والعشرون: أنه سبحانه قرن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلها.

فقرَنَه بالصلاة كقوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقرنه بالأعمال الصالحة عمومًا كقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١].

وجعله قرين التقوىٰ كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠].

وجعله قرين الشكر كقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

وجعله قرين الحق كقوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

وجعله قرين الرحمة كقوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

وجعله قرين اليقين كقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وجعله قرين الصدق كقوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وجعله سببَ محبَّته ومعيَّته وعونه ونصره وحسن جزائه، ويكفيه بعضُ ذلك شرفًا وفضلًا.

ص١٣٧

الباب السادس عشر
في ذكر ما ورد فيه من نصوص السنة

في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتىٰ علىٰ امرأةٍ تبكي علىٰ صبيٍّ لها: فقال لها: «**اتقي اللهَ واصبري**» فقالت: وما تبالي بمصيبتي! فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله. فأخذها مثل الموت، فأتت بابه فلم تجد علىٰ بابه بوَّابين، فقالت: يا رسول الله لم أعرفك. فقال: «**إنما الصبر عند أول صدمة**» وفي لفظ: «**عند الصدمة الأولىٰ**»[1].

وقولُه: «**الصبر عند الصدمة الأولىٰ**» مثل قوله: «**ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسَه عند الغضب**»[2] فإن مفاجأة المصيبة بغتةً لها رَوعةٌ تُزعزع القلبَ وتُزعجه بصدمتها، فإنْ صبر للصدمة الأولىٰ انكسر حدُّها، وضعُفَت قوَّتها، فهان عليه استدامة الصبر.

وأيضًا فإن المصيبة ترد علىٰ القلب وهو غير مُوطِّن لها[3] فتزعجه، وهي الصدمة الأولىٰ، وأما إذا وردت عليه بعد ذلك تَوطَّن لها وعَلِم أنه لا بد له منها، فيصير صبرُه شبيهَ الاضطرار. وهذه المرأةُ لمَّا علمت أن جَزَعها لا يُجدي عليها شيئًا جاءت تعتذر إلىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كأنها تقول له: قد صبرت! فأخبرها أن الصبر إنما هو عند الصدمة

---

(١) البخاري (٧١٥٤، ١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩). «الصُّرَعة»: كثير الصَّرْع لأقرانه. «تاج العروس» (٢١/ ٣٣٠).

(٣) أي: غير مُمَهِّد وغير مستعدٍّ لها.

الأولىٰ.

وفي «صحيح مسلم»[(١)] عن أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«ما مِن مسلم تُصيبه مصيبةٌ فيقول ما أمره الله: (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم أْجُرْني في مصيبتي وأَخْلِف لي خيرًا منها) إلا أخلَفَ اللهُ له خيرًا منها»** قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أيُّ المسلمين خير من أبي سلمة! أولِ بيتٍ هاجر إلىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأرسل إليَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقلت: إن لي بنتًا وأنا غيور. فقال: **«أما ابنتُها فأدعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة»** فتزوجتُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعند أبي داود[(٢)] في هذا الحديث عنها قالت: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إذا أصابت أحدُكُم مصيبة فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك أحتَسِب مصيبتي، فأْجُرْني بها، وأبدِلْني خيرًا منها»** فلما احتضر أبو سلمة قال: اللهم أَخلِفني في أهلي خيرًا مني. فلما قُبض قالت أم سلمة: إنا لله وإنا إليه راجعون، عند الله أحتسب مصيبتي، فأْجُرْني فيها.

فانظر عاقبة الصبر والاسترجاع ومتابعة الرسول والرضا عن الله إلىٰ ما آلَتْ وأنالت أمَّ سلمة نكاحَ أكرمِ الخلق علىٰ الله.

---

(١) برقم (٩١٨).

(٢) برقم (٣١١٩) دون قوله: «فلما احتضر أبو سلمة»، وأخرجه تامًّا: الترمذي (٣٥١١)، وابن ماجه (١٥٩٨)، وقال الترمذي: «حسن غريب من هذا الوجه».

وفي «جامع الترمذي»، و«مسند الإمام أحمد»، و«صحيح ابن حبان»[١] عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا مات ولدُ العبد قال اللهُ لملائكته: قبضتم ولدَ عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرةَ فؤادِهِ؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنَّة وسَمُّوه بيت الحمد**».

وفي «صحيح البخاري»[٢] من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله قال: «**إذا ابتَلَيتُ عبدي بحبيبتَيه ثم صبر عوَّضتُه عنهما الجنة**» يريد عَينَيه.

وفي «صحيح البخاري»[٣] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ما لِعبدي المؤمنِ جزاءٌ إذا قبضتُ صَفِيَّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة**».

وفي «صحيحه»[٤] أيضًا عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ألا أريك امرأةً من أهل الجنَّة؟ قلت: بلىٰ. قال: هذه المرأةُ السوداءُ، أتت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: إنِّي أُصرَعُ وأتكشَّف، فادعُ الله لي. قال: «**إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة، وان شئتِ دعوتُ الله أن يعافيَك**» قالت: أَصْبر. فقالت: أني أتكشَّفُ فادعُ الله ألا أتكشَّف.

(١) الترمذي (١٠٢١)، وأحمد (٤/ ٤١٥)، وابن حبان (٢٩٤٨)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.
(٢) برقم (٥٦٥٣).
(٣) برقم (٦٤٢٤).
(٤) برقم (٥٦٥٢)، وأخرجه مسلم أيضا (٢٥٧٦).

وفي «الصحيحين»[1] من حديث الزهري عن عروة عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من مصيبةٍ تصيبُ المسلم إلا كفَّر الله بها عنه، حتىٰ الشوكةِ يُشاكُها**».

وفيهما أيضًا[2] من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما يصيب المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ[3] ولا حزنٍ ولا أذًىٰ، ولا غمٍّ، حتىٰ الشوكةِ يُشاكها، إلا كفَّر اللهُ بها من خطاياه**».

وفي «صحيح مسلم»[4] من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لا يصيب المؤمن شوكةٌ فما فوقَها إلا رفعه الله بها درجة، وحَطَّ عنه بها خطيئة**».

وفي «المسند»[5] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يزال البلاءُ بالمؤمن، أو المؤمنة، في جسده وفي ماله وفي ولده حتىٰ يلقىٰ اللهَ وما عليه خطيئة**».

وفي «الصحيح»[6] من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسولَ الله أيُّ الناس أشدُّ بلاء؟ قال: «**الأنبياءُ ثم الصالحون ثم الأمثلُ فالأمثل؛ يُبتلىٰ الرجلُ علىٰ**

---

(١) البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢).
(٢) البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣).
(٣) «نَصَب»: تعب، «وَصَب»: وجع ومرض.
(٤) برقم (٢٥٧٢).
(٥) (٢/ ٢٨٧)، وصححه الحاكم (١/ ٢٤٦).
(٦) ليس في «الصحيحين»، وإنما في «صحيح ابن حبان» (٢٩٠١). وأخرجه أيضًا أحمد (١/ ١٧٢)، والترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

حَسَبِ دينه، فإن كان في دينه صلابةٌ زِيدَ في بلائه، وإن كان في دينه رِقَّةٌ خُفِّف عنه، وما يزال البلاءُ بالعبدِ حتَّىٰ يمشي علىٰ الأرض وليس عليه خطيئة».

وفي «الصحيحين»(١) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: دخلت علىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو يُوعَك وَعْكًا شديدًا، فقلت: يا رسول الله إنك لَتُوعَك وعكًا شديدًا! قال: «**أجل، إني لأُوعَكُ كما يُوعَك رجلان منكم**». قلت: إنَّ لك لأجرين؟ قال: «**نعم، والذي نفسي بيده ما علىٰ الأرض مسلمٌ يصيبه أذًىٰ مِن مرضٍ فما سواه إلا حَطَّ الله عنه خطاياه كما تَحُطُّ الشجرةُ اليابسةُ ورقَها**».

وفي «الصحيحين»(٢) أيضًا من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: **ما رأيتُ الوجع علىٰ أحدٍ أشدَّ منه علىٰ رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وفي بعض «المسانيد»(٣) مرفوعًا: «**إن الرجل لَتكون له الدرجةُ عند الله تعالىٰ، لا يبلغها بعملٍ حتىٰ يُبتلىٰ ببلاءٍ في جسمه فيبلُغَها بذلك**».

ويروىٰ عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إذا اشتكىٰ المؤمنُ أخلَصَه ذلك من الذنوب كما يُخْلِص الكيرُ الخَبَثَ من الحديد**»(٤).

وفي «صحيح البخاري»(٥) من حديث خبَّاب بن الأرت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: شكونا إلىٰ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو متوسِّد ببُردةٍ له في ظلِّ الكعبة، فقلنا: ألا تستنصرُ لنا، ألا

(١) البخاري (٥٦٦٠)، ومسلم (٢٥٧١).
(٢) البخاري (٥٦٤٦)، ومسلم (٢٥٧٠).
(٣) أخرجه هناد في «الزهد» (٤٠٠)، وصححه ابن حبان (٢٩٠٨)، والحاكم (١/ ٣٤٤).
(٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٤٩٧)، وصححه ابن حبان (٢٩٣٦).
(٥) برقم (٦٩٤٣).

تدعو لنا! فقال: «**قد كان من قبلكم يُؤخَذ الرجل فيُحفَر له في الأرض فيُجعَل فيها، ثم يُؤتىٰ بالمِنشار فيُوضَع علىٰ رأسه فيُجعَل نصفين، ويُمشَط بأمشاطِ الحديد ما دون لحمه وعظمه؛ ما يصدُّه ذلك عن دينه، واللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتىٰ يسير الراكبُ من صنعاءَ إلىٰ حضرموتَ لا يخافُ إلا اللهَ والذئبَ علىٰ غَنَمِه، ولكنَّكم تستعجِلون**».

وفي «الصحيحين»[(١)] من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أرسلَتْ بنتُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه؛ أنَّ ابنًا لي احتُضِر فأْتِنا. فأرسَلَ يُقرئ السلام ويقول: «**إن للهِ ما أخذ، وله ما أعطىٰ، وكلُّ شيءٍ عندَه بأجلٍ مسمًّىٰ، فلتَصبِرْ ولتَحْتَسِبْ**» فأرسلَتْ إليه تُقسم عليه لَيأتينَّها، فقام ومعه سعدُ بن عُبادةَ ومعاذُ بن جبلٍ وأبيُّ بن كعبٍ وزيد بن ثابتٍ ورجال، فرُفع الصبيُّ إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأقعده في حَجْره ونَفْسُه تَقَعْقَعُ[(٢)] كأنها شَنٌّ[(٣)] ففاضت عيناه، فقال سعدٌ: يا رسولَ الله ما هذا؟ قال: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحمُ الله من عباده الرحماء**».

وفي «سنن النسائي»[(٤)] عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: احتُضِرَت بنتٌ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صغيرة، فأخذها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضمَّها إلىٰ صدره ثم وضع يده عليها وهي بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبكت أمُّ أيمن، فقلتُ لها: أتبكين ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندك؟ فقالت: ما لي لا أبكي ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبكي! فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني لستُ أبكي ولكنَّها رحمة**» ثم قال رسول

---

(١) البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).
(٢) أي: تضطرب وتتحرك. «النهاية» (٤/ ٨٨).
(٣) الشن: القربة. «النهاية» (٢/ ٥٠٦- ٥٠٧).
(٤) برقم (١٨٤٣)، وصححه ابن حبَّان (٢١٩٤).

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المؤمنُ بخيرٍ علىٰ كل حال، تُنزَع نفسُه من بين جنبيه وهو يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ**».

وفي «صحيح البخاري»(١) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اشتكىٰ ابنٌ لأبي طلحة فمات، وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات، هيَّأَتْ شيئًا ونَحَّتْه في جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسُه، وأرجو أن يكون قد استراح. فظن أبو طلحة أنها صادقة. قال: فبات معها، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يَخرُج أعلَمَتْه أنه قد مات، فصلىٰ مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم أخبره بما كان منهما، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعل اللهَ أن يُبارِك لكما في ليلتكما**» قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيتُ لهما تسعةَ أولادٍ كلهم قد قرأوا القرآن.

وفي «الترمذي»(٢) من حديث يحيىٰ بن وَثَّاب عن شيخٍ من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المسلم الذي يُخالِط الناسَ ويصبرُ علىٰ أذاهم خيرٌ من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم**».

وفي «الصحيحين»(٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما أُعطِيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصبر**».

وفي «جامع الترمذي»(٤) عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أحبَّ اللهُ قومًا ابتلاهم، فمن رضي**

(١) برقم (١٣٠١).
(٢) برقم (٢٥٠٧)، وأخرجه أيضًا ابن ماجه (٤٠٣٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٣٩).
(٣) البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).
(٤) برقم (٢٣٩٦) وحسنه، وأخرجه أيضًا ابن ماجه (٤٠٣١).

فله الرضا، ومن سَخِط فله السخط».

وذُكر عن أبي معمرٍ الأزدي قال: كنا إذا سمعنا من ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيئًا نكرهه سكتنا حتىٰ يُفسِّرَه لنا، فقال لنا ذات يوم: ألا إنَ السُّقم لا يُكتب له أجرٌ. فساءنا ذلك وكبُر علينا، فقال: ولكن تُكفَّر به الخطيئة. فسرَّنا ذلك وأعجبنا[١].

وهذا من كمال علمه وفقهه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإن الأجر إنما يكون علىٰ الأعمال الاختيارية وما تولَّد منها، كما ذكر الله سبحانه النوعين في آخر سورة التوبة في قوله في المباشِر من الإنفاق وقطع الوادي: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١] وفي المتولِّد من إصابة الظمأ والنصب والمخمصة في سبيله وغيظ الكفار: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠] فالثواب مرتبط بهذين النوعين. وأما الاسقام والمصائب فإن ثوابها تكفيرُ الخطايا، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما قال في المصائب: «**كفَّر الله بها من خطاياه**» كما تقدم ذكرُ ألفاظه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذا قوله: «**المرضُ حِطَّةٌ**»[٢] **فالطاعات تَرفع الدرجات، والمصائب تحُطُّ السيئات**. ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يُردِ اللهُ به خيرًا يُصِب منه**»[٣] وقال: «**من يُردِ اللهُ به خيرًا يفقِّهْه في الدين**»[٤] فهذا يرفعه، وهذا يحطُّ خطاياه.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٥).
(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ١٩٥، ١٩٦)، وصححه الحاكم (٣/ ٢٦٥).
(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤٥).
(٤) أخرجه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧).

ولا يَرِدُ علىٰ هذا حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ثواب من قبض الله ولدَه وثمرةَ فؤادِه بأن يبني له بيتًا في الجنة ويسمِّيه بيت الحمد[1] لأنه إنما نال ذلك البيتَ بحمده لله واسترجاعِه وذلك عمل اختياري، ولذلك سُمِّي بيتَ الحمد.

وفي «النسائي»[2] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأعرابي: «**هل أخذَتْك أمُّ مِلدَمٍ؟**» قال: يا رسول الله ما أم مِلدم؟ قال: «**حرٌّ يكون بين الجلد والدم**» قال: ما وجدت هذا. قال: «**يا أعرابي، هل أخذك هذا الصداع؟**» قال: يا رسول وما هذا الصداع؟ قال: «**عِرقٌ يضرب علىٰ الإنسان في رأسه**» قال: ما وجدت هذا. فلما ولَّىٰ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أحبَّ أن ينظر إلىٰ رجلٍ من أهل النار فلينظر إلىٰ هذا**».

وقال بعض السلف: «لولا مصائب الدنيا وردنا القيامة مفاليس»[3].

وقال زياد بن الربيع: قلت لأُبيِّ بن كعبٍ: آيةٌ في كتاب الله قد أحزنتني. قال: ما هي؟ قلت: ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ**﴾ [النساء: ١٢٣] قال: ما كنتُ أراك إلا أفقه مما أرىٰ! إن المؤمن لا تصيبه عثرةُ قدمٍ، ولا اختلاجُ عرقٍ إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر[4].

---

(١) تقدَّم الحديث وتخريجه.
(٢) «السنن الكبرىٰ» (٧٤٩١)، وصححه ابن حبان (٢٩١٦).
(٣) انظر: «حلية الأولياء» (١٠/ ١٦٤).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٠٠). «اختلاج عرقٍ»: تحرُّكه واضطرابه. «تاج العروس» (٥/ ٥٣٠).

ويذكر عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما ضُرب علىٰ مؤمن عِرْقٌ، إلا كتب الله له به حسنةً، وحَطَّ به عنه سيئةً، ورَفَع له به درجة»**[(١)].

ولا ينافي هذا ما قدَّمناه من أن المصائب مكفِّراتٍ لا غير؛ لأن حصول الحسنة إنما هو بصبره الاختياري عليها وهو عمل منه.

وعاد رجل من المهاجرين مريضًا فقال: إن للمريض أربعًا: يُرفَع عنه القلم، ويُكتَب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته، ويَتبع المرضُ كلَّ خطيئة في مَفصِلٍ من مفاصله فيستخرجها، فإن عاش عاش مغفورًا له، وإن مات مات مغفورًا له. فقال المريض: اللهم لا أزال مضطجعًا[(٢)].

وفي «المسند»[(٣)] عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«والذي نفسي بيده، لا يَقضي اللهُ للمؤمن من قضاء إلا كان خيرًا له؛ إن أصابَتْه سرَّاءُ شكر فكان خيرًا له، وان أصابته ضرَّاءُ صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»**.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٢٠٧)، وصححه الحاكم (١/ ٢٤٧)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٤٥٦).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٢٠٩).

(٣) (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣) بنحوه. وأخرجه أيضًا مسلم (٢٩٩٩) بنحوه.

ص١٧٦

الباب السابع عشر

في الآثار الواردة عن الصحابة ومَن بعدهم في فضيلة الصبر

قال الإمام أحمد[١]: حدثنا وكيع، عن مالك بن مِغْوَل، عن أبي السَّفَر قال: مرض أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعادوه فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: «قد رآني الطبيب» قالوا: فأيُّ شيءٍ قال لك؟ قال: «إني فعَّال لما أريد».

وقال الإمام أحمد[٢]: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مجاهد قال: قال عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر».

وقال أيضا: «أفضل عيش أدركناه بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريمًا»[٣].

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطِع الرأسُ بار الجسد» ثم رفع صوته فقال: «ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له»[٤].

وقال: «الصبر مطية لا تكبو»[٥].

وقال الحسن: «الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده»[٦].

---

(١) في «الزهد» (٥٨٧).
(٢) في «الزهد» (٦١٢). وصححه ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٣٠٩).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصبر» (٦).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصبر» (٨)، وابن أبي شيبة (٣٠٤٣٩).
(٥) نسبه له القشيري في «الرسالة» (ص ٢٥٦).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصبر» (١٦).

وقال عمر بن عبد العزيز: «ما أنعم الله علىٰ عبد نعمةً فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر، إلا كان ما عوَّضه خيرًا مما انتزعه منه»[(١)].

وقال ميمون بن مهران: «ما نال أحد شيئًا من جسيم الخير نبيٌّ فما دونه إلا بالصبر»[(٢)].

وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يُخرجها كلَّ وقت ينظر فيها، وفيها: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[(٣)] [الطور: ٤٨].

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أيضا: «لو كان الصبر والشكر بعيرَين لم أُبالِ أيَّهما ركبتُ»[(٤)].

وكان ابن شُبْرُمة إذا نزل به بلاءٌ قال: «سحابةٌ ثم تنقشع»[(٥)].

وقال سفيان بن عُيينة في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤]: «لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوسًا»[(٦)].

وقيل للأحنف بن قيس: ما الحِلم؟ قال: «أن تصبر علىٰ ما تكره قليلًا»[(٧)].

---

(١) انظر: «الرسالة القشيرية» (ص ٢٥٨).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصبر» (٢٢).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصبر» (٢٠).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصبر» (٧).
(٥) انظر: «الرسالة القشيرية» (ص ٢٥٨).
(٦) انظر: «الرسالة القشيرية» (ص ٢٥٩).
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الحلم» (٧٣).

وقال حِبَّان بن أبي جَبَلة في قوله تعالىٰ: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ [يوسف: ١٨، ٨٣] قال: «لا شكوىٰ فيه» ورفعه ابن أبي الدنيا أيضًا[(١)].

وقال مجاهد: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾: «في غير جزع»[(٢)].

وقال عمرو بن قيس: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ قال: «الرضا بالمصيبة والتسليم»[(٣)].

وقال بعض السلف: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾: «لا شكوىٰ فيه»[(٤)].

وقال همام عن قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٨٤] قال: «كَظَم علىٰ الحزن فلم يَقُل إلا خيرًا»[(٥)].

وقال يحيىٰ بن المختار عن الحسن: «الكظيم: الصبور»[(٦)].

وقال الضحَّاك: ﴿كَظِيمٞ﴾ أي: كميد[(٧)]. أي: كَمَده الحزن.

وقال الحسن: «ما جرعتان أحبَّ إلىٰ الله من جَرعةِ مصيبةٍ موجعةٍ محزنة ردَّها صاحبُها بحُسن عزاءٍ وصبر، وجَرعةِ غيظٍ ردَّها بحلم»[(٨)].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصبر» (١١٠) عنه به مرفوعًا، وهو مرسل.
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٠، ٤١).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصبر» (١١٦).
(٤) انظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٢٧)، و«تفسير الطبري» (١٣/ ٤٠).
(٥) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٣٢٧)، والطبري (١٣/ ٤٠).
(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٠)، وابن أبي الدنيا في كتاب «الصبر» (١١٧).
(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٠).
(٨) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٩٧٢) بنحو. وأخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٤٠٩) عن الحسن مرفوعًا، وهو مُرسل.

وقال عمرو بن دينار: قال عبيد بن عمير: «ليس الجَزَعُ أن تدمع العينُ ويحزن القلب، ولكنَّ الجزع: القولُ السيئ والظن السيئ»[(١)].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني الحسن بن عبد العزيز الجَرَوي قال: مات ابنٌ لي نفيس فقلت لأمه: «اتقي الله واحتسبيه» فقالت: «مصيبتي أعظمُ من أن أفسدها بالجزع».

وقال ابن أبي الدنيا[(٢)]: وأخبرني عمرو بن بكير عن شيخ من قريش قال: مات الحسن بن الحصين أبو عبيد الله بن الحسن، وعبيدُ الله يومئذ قاضٍ علىٰ البصرة وأمير، فكثُر من يعزِّيه، فتذاكروا ما يتبيَّن به جَزَعُ الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئًا مما كان يصنعه فقد جَزِع.

وقال خالد بن أبي عثمان القرشي: كان سعيدُ بن جبيرٍ يُعزِّيني علىٰ ابني، فرآني أطوف بالبيت مُتقنعًا، فكشف القناع عن رأسي وقال: «الاستكانة من الجزع»[(٣)].

❊❊❊❊❊

فصل

ص١٨٧ لا يشرع للمصاب أن يلبس ما يعرف به ليعزّىٰ

وأما قول كثير من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم: لا بأس أن يجعل المصاب علىٰ رأسه ثوبًا يُعرَف به، قالوا: لأن التعزية سنة، وفي ذلك تيسير لمعرفته حتىٰ يعزَّىٰ.

ففيه نظر، وأنكره شيخنا.

---

(١) انظر: «تسلية أهل المصائب» (ص ١٦٤، ٢١٣).

(٢) لم أجده في كتاب «الصبر» له. انظر: «التعازي» للمبرد (ص٧١).

(٣) انظر: «تسلية أهل المصائب» (ص ١٦٤).

ولا ريب أن السلف لم يكونوا يفعلون شيئًا من ذلك، ولا نُقل هذا عن أحد من الصحابة والتابعين، والآثار المتقدمة كلُّها صريحة في رد هذا القول.

وقد أنكر إسحاق بن راهويه أن يترك لُبسَ ما عادته لبسُه وقال: هو من التسلُّب[1].

وبالجملة فعادتهم أنهم لم يكونوا يغيرون شيئًا من زيِّهم قبل المصيبة، ولا يتركون ما كانوا يعملونه، فهذا كله منافٍ للصبر، والله أعلم.

(١) التّسلب: لبسُ السِّلاب، وهي ثياب المأتم السود. انظر: «لسان العرب» (١/ ٤٧٣).

ص١٨٩

الباب الثامن عشر

في ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشق الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها

فمنها البكاء علىٰ الميت:

ومذهب أحمد وأبي حنيفة جوازه قبل الموت وبعده، واختاره أبو إسحاق الشيرازي[١].

وكرهه الشافعي وكثير من أصحابه بعد الموت، ورخصوا فيه قبل خروج الروح[٢].

واحتجوا بحديث جابر بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء يعود عبدَ الله بن ثابت، فوجده قد غُلب، فصاح به فلم يجبه، فاسترجع وقال: «**غُلبنا عليك يا أبا الربيع**» فصاح النسوة وبكَين، فجعل ابن عتيك يُسكِّتهن، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعْهن، فإذا وجب فلا تَبكِيَنَّ باكيةٌ**» قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟ قال: «**الموت**» رواه أبو داود والنسائي[٣].

قالوا: وفي «الصحيحين»[٤] من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) انظر: «بدائع الصنائع» (١/ ٣١٠)، و«الإنصاف» للمرداوي (٢/ ٥٦٧)، و«التنبيه» للشيرازي ص٥٣.

(٢) انظر: «الأم» (١/ ٢٧٩)، و«روضة الطالبين» (٢/ ١٤٥).

(٣) أبو داود (٣١١١)، والنسائي (١٨٤٦)، وصححه ابن حبان (٣١٨٩)، والحاكم (١/ ٣٥٢).

(٤) البخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٨).

قال: «**إن الميت لَيعذَّبُ ببكاء أهله عليه**».

وهذا إنما هو بعد الموت، وأما قبله فلا يُسمَّىٰ ميّتًا.

والفرق بين ما قبل الموت وبعده: أنه قبل الموت يُرجىٰ فيكون البكاء عليه حذرًا، فإذا مات انقطع الرجاء وأبرم القضاء فلا ينفع البكاء.

قال المجوِّزون: قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أُصيب أبي يومَ أحدٍ فجعلتُ أبكي، فجعلوا ينهَونني ورسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينهاني، فجعلت عمَّتي فاطمةُ تبكي، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تبكِين أو لا تبكِين، ما زالت الملائكة تُظِلُّه بأجنحتها حتىٰ رفعتموه**» متفق عليه[1].

وفي «الصحيحين»[2] أيضًا عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: اشتكىٰ سعدُ بن عُبادةَ شكوىٰ له، فأتاه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُوده مع عبد الرحمن بن عوف، وسعدِ بن أبي وقاص، وعبدِ الله بن مسعود، فلما دخل عليه وجده في غَشيَّةٍ فقال: «**قد قضىٰ؟**» قالوا: لا يا رسول الله، فبكىٰ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما رأىٰ القومُ بكاءَه بَكَوا، فقال: «**ألا تسمعون، إن الله لا يُعذِّب بدَمْعِ العينِ ولا بحزن القلب ولكن يُعذِّب بهذا**» وأشار إلىٰ لسانه «**أو يرحم**».

وفي «الصحيحين»[3] أيضًا من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انطلق إلىٰ إحدىٰ بناته، ولها صبيٌّ في الموت، فرُفع إليه الصبيُّ ونفسُه

---

(١) البخاري (١٢٤٤)، ومسلم (٢٤٧١).
(٢) البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤).
(٣) البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

تَقَعْقَعُ كأنها شنَّة، ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رسولَ الله؟ قال: «**هذه رحمةٌ جعلها اللهُ في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**».

وقد صحَّ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه زار قبر أمه فبكىٰ، وأبكىٰ من حوله[1].

وصحَّ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قبَّل عثمان بن مظعون حتىٰ سالَتْ دموعُه علىٰ وجهه[2].

وصح عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه نعىٰ جعفرًا وأصحابه وعيناه تذرفان[3].

وصح عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قبَّل النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ميت وبكىٰ[4].

فهذه الأحاديث تدل علىٰ عدم كراهة البكاء، فتعيَّن حملُ أحاديثِ النهي علىٰ البكاء الذي معه ندب ونياحة، ولهذا جاء في بعض ألفاظ حديث عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**الميت يُعذَّب ببعض بكاء أهله عليه**»[5] وفي بعضها: «**يعذب بما نِيحَ عليه**»[6].

وقال البخاري في «صحيحه»[7]: قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**دَعْهنَّ يبكين علىٰ أبي سليمان -يعني خالد بن الوليد- ما لم يكن نَقْعٌ أو لقلقة**» والنقع: التراب علىٰ الرأس. واللقلقة: الصوت.

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦).
(٢) أخرجه أبو داود (٣١٦٣)، والترمذي (٩٨٩)، وابن ماجه (١٤٥٦)، وصححه الترمذي.
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٣٠).
(٤) أخرجه البخاري (١٢٤١، ١٢٤٢).
(٥) البخاري (١٢٨٧)، ومسلم (٩٢٧).
(٦) البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٩٢٧).
(٧) قبل الحديث (١٢٩١) مُعلَّقًا.

وقولهم: إنما جاز قبل الموت حذرًا بخلاف ما بعد الموت.

جوابه: أنَّ الباكي قبل الموت يبكي حزنًا، وحزنه بعد الموت أشدُّ، فهو أولىٰ برخصة البكاء من الحالة التي يرجو فيها، وقد أشار صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ ذلك بقوله: «**تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يُسخِط الربَّ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون**»[1].

❊❊❊❊❊

ص١٩٥ تحريم الندب والنياحة

فصل

قال ابن عبد البر[2]: «أجمع العلماء علىٰ أن النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء».

لما في «الصحيحين»[3] من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ليس مِنَّا من ضَرَبَ الخُدود وشقَّ الجيوب[4] ودعا بدعوىٰ الجاهلية**».

وفي «الصحيحين»[5] عن أبي بردة قال: وجع أبو موسىٰ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وجعًا فغُشي عليه، ورأسُه في حَجر امرأةٍ من أهله، فلم يستطع أن يردَّ عليها شيئًا، فلما أفاق قال: «أنا بريءٌ مما بَرِئ منه رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برئ من الصالقة[6] والحالقة والشاقّة».

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).
(٢) في «الاستذكار» (٣/ ٦٨).
(٣) البخاري (١٢٩٧)، ومسلم (١٠٣).
(٤) «الجيوب»: جمع جيب، وهو طوق القميص الذي يخرج منه الرأس والعنق.
(٥) البخاري (١٢٩٦)، ومسلم (١٠٤).
(٦) «الصالقة»: هي النائحة التي ترفع صوتها عند المصائب. «لسان العرب» (١٠/ ٢٠٥).

وفي «الصحيحين»[١] أيضًا عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن مَن نِيحَ عليه يُعذَّبُ بما نيح عليه**».

وفي «الصحيحين»[٢] أيضًا عن أم عطية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «أخذ علينا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في البيعة ألا ننوح، فما وفَّت منا امرأةٌ إلا خمس نسوةٍ».

وفي «صحيح البخاري»[٣] عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الميت يُعذَّب في قبره بما نيح عليه**».

وفي «صحيح مسلم»[٤] عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال «**أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهنَّ: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**» وقال: «**النائحة إذا لم تَتُب قبل موتها تُقامُ يوم القيامة وعليها سِربالٌ من قَطِران ودِرعٌ من جَرَب**[٥]».

وفي «صحيح البخاري»[٦] عن النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: أغمي على عبد الله ابن رواحة، فجعلَتْ أختُه عمرةُ بنتُ رواحةَ تبكي وتقول: وا جبلاه! وا كذا وا كذا! تُعدِّدُ عليه، فقال حين أفاق: ما قُلتِ لي شيئًا إلا قيل لي: آنتَ كذلك! فلما مات لم تَبكِ عليه.

---

(١) البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٩٣٣).

(٢) البخاري (١٣٠٦)، ومسلم (٩٣٦).

(٣) البخاري (١٢٩٢) من رواية ابن عمر، عن أبيه، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٤) مسلم (٩٣٤).

(٥) «سربال»: قميص. «قطران»: عُصارة شجر الأبْهَل والأَرْز ونحوهما يُطبَخ ثم يُطلىٰ بها الإبلُ الجَرِبة، وهو شديد الاشتعال. «درعٌ من جرب» أي: يُسلَّط عليها الجرب بحيث يُغطِّي بدنها تغطيةَ الدرع، وهو قميص المرأة السابغ.

(٦) البخاري (٤٢٦٧، ٤٢٦٨).

وكيف لا تكون هذه الخصال محرمة وهي مشتملة علىٰ التسخُّط علىٰ الرب، وفعلِ ما يناقض الصبر، والإضرار بالنفس: من لطم الوجه، وحلقِ الشعر ونتفه، والدعاءِ عليها بالويل والثبور، والتظلُّمِ من الله سبحانه، وإتلاف المال بشقِّ الثياب وتمزيقها، وذكرِ الميت بما ليس فيه!

ولا ريب أن التحريم الشديد يَثبت ببعض هذا.

فصل

ص٢٠٠ كلام يسير عند المصيبة إذا كان صدقًا لا يحرم

وأما الكلمات اليسيرة إذا كانت صدقًا لا علىٰ وجه النَّوح والتسخُّط، فلا تحرم ولا تنافي الصبر الواجب، نصَّ عليه أحمد[1] لما رواه في «مسنده»[2] من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أن أبا بكر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **دخل علىٰ النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بعد وفاته، فوضع فمه بين عينيه، ووضع يده علىٰ صدغَيه وقال: وانبيَّاه! وا خليلاه! وا صفيَّاه!»**.

وفي «صحيح البخاري»[3] عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا قال: لما ثَقُل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل يتغشَّاه الكرب، فقالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: واكربَ أبتاه! فقال: «**ليس علىٰ أبيك كربٌ بعد اليوم**» فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًّا دعَاه! يا أبتاه جنةُ الفردوس مأواه! يا أبتاه إلىٰ جبريل أنعاه! فلما دُفن قالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا أنس، أطابت أنفسُكُم أن تَحثُوا علىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التراب!

(١) انظر: «الفروع» لابن مفلح (٢/ ٢٩١).
(٢) (٦/ ٣١)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٣/ ١٥٧).
(٣) برقم (٤٤٦٢).

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإنَّا بك يا إبراهيمُ لَمحزونون**»[(١)].

وهذا ونحوه من القول الذي ليس فيه تظلُّم للمقدور، ولا تسخُّط على الرب ولا إسخاط له، فهو كمجرَّد البكاء.

❁❁❁❁❁

ص٢٠١
الميت يعذب بالنياحة عليه

فصل

فأما قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الميت يُعذَّب بالنياحة عليه**» فقد ثبت عنه من رواية عمر بن الخطاب وابنه عبدِ الله والمغيرة بن شعبة، وروى نحوه عمرانُ بن حصين وأبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(٢)].

وقد أنكرتها عائشةُ أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا واحتجت بقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ [**الأنعام: ١٦٤**].

ولمَّا بلغها روايةُ عمرَ وابنِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالت: إنكم لتُحدِّثُون عن غير كاذبَين ولا متَّهمَين، ولكن السمع يُخطئ. وقالت: إنما مرَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قبرِ يهودي فقال: «**إن صاحبَ هذا القبر يُعذَّب، وأهله يبكون عليه**»[(٣)].

---

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجها ما عدا حديث عمران، فقد أخرجه النسائي (١٨٤٩)، وصححه ابن حبان (٣١٣٤).
(٣) أخرجه البخاري (١٢٨٩)، ومسلم (٩٣١، ٩٣٢).

وفي رواية متفق عليها[1] عنها: إنما قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن اللهَ لَيزيدُ الكافرَ عذابًا ببكاءِ أهلِه عليه**» وقالت: حسبكم القرآن: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

فصل

ص٢٠٣ عذاب الميت بالنياحة ليس من باب العقاب

ولا تحتاج هذه الأحاديث إلىٰ شيءٍ من هذه التكلُّفات، وليس فيها بحمد الله إشكالٌ ولا مخالفةٌ لظاهر القرآن ولا لقاعدة من قواعد الشرع، ولا تتضمَّنُ عقوبةَ الإنسان بذنب غيره، فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقل: إن الميتَ يُعاقَب ببكاء أهله عليه ونَوحِهم، وإنما قال: إنه يُعذَّبُ بذلك، ولا ريب أن ذلك يُؤلمه ويُعذِّبُه.

والعذاب هو: الألم الذي يحصل له، وهو أعمُّ من العقاب، والأعم لا يستلزم الأخص، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**السَّفَرُ قطعة من العذاب**»[2] وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافر، حتىٰ إنَّ الميت ليتألم بمن يعاقَب في قبره بجواره ويتأذَّىٰ بذلك، كما يتأذىٰ الإنسان في الدنيا بما يشاهده من عقوبة جاره، فإذا بكىٰ أهلُ الميت عليه البكاءَ المحرَّم، وهو البكاءُ الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه - والبكاء علىٰ الميت عندهم اسمٌ لذلك وهو معروف في نظمهم ونثرهم - تألَّم الميت بذلك في قبره، فهذا التألم هو عذابه بالبكاء عليه، وهذه طريقة شيخنا في هذه الأحاديث[3]. وبالله التوفيق.

---

(١) البخاري (١٢٨٨)، ومسلم (٩٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠١)، ومسلم (١٩٢٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٤/ ٣٧٤- ٣٧٥).

ص٢٠٥

الباب التاسع عشر

في أن الصبر نصف الإيمان وأن الإيمان نصفان: نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ

قال غير واحد من السلف: «الصبر نصف الإيمان»[١].

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر»[٢].

ولهذا جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ في سورة إبراهيم [٥] وفي سورة حم عسق [٣٣] وفي سورة سبأ [١٩] وفي سورة لقمان [٣١].

وقد ذُكر لهذا التنصيف اعتبارات:

أحدها: أن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهي ترجع إلىٰ شطرين: فعلٍ وتركٍ، فالفعل هو العمل بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ وهو حقيقة الشكر، والترك هو الصبر عن المعصية، والدين كله في هذين الشيئين: فعلِ المأمور، وتركِ المحظور.

الاعتبار الثاني: أن الإيمان مبني علىٰ ركنين: يقين، وصبر. وهما الركنان المذكوران في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٨٤)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (٤٤٤٨).
(٢) أخرج عبد الله بن أحمد في «السنة» (٨١٧) عنه أنه قال: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله».

فباليقين يَعلم حقيقةَ الأمر والنهي والثواب والعقاب، وبالصبر ينفِّذ ما أُمر به ويكفُّ نفسه عما نُهي عنه، ولا يحصل له التصديق بالأمر والنهي أنه من عند الله وبالثواب والعقاب إلا باليقين، ولا يمكنه الدوام علىٰ فعل المأمور وكف النفس عن المحظور إلا بالصبر، فصار الصبر نصفَ الإيمان، والنصف الثاني الشكرُ بفعل ما أمر به وبترك ما نهي عنه.

الاعتبار الثالث: أن الدين كلَّه رغبة ورهبة، فالمؤمن هو الراغب الراهب. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وفي الدعاء عند النوم الذي رواه البخاري في «صحيحه»: «**اللهم إني أسلمتُ نفسي إليك، ووجَّهت وجهي إليك، وفوَّضت أمري إليك، وأَلْجَأْتُ ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك**...»[1].

فلا تجد المؤمن أبدًا إلا راغبًا وراهبًا، والرغبة والرهبة لا تقوم إلا علىٰ ساق الصبر، فرهبته تحمله علىٰ الصبر، ورغبته تقوده إلىٰ الشكر.

(١) البخاري (٦٣١٥)، ومسلم (٢٧١٠).

الباب العشرون

في بيان تنازع الناس في الأفضل من الصبر والشكر

حكىٰ أبو الفَرَج ابنُ الجوزي في ذلك ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الصبر أفضل.

والثاني: أن الشكر أفضل.

والثالث: أنهما سواء، كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت»[١].

ونحن نذكر ما احتجَّتْ به كلُّ فرقةٍ، وما لها وعليها في احتجاجها، بعون الله وتوفيقه.

قال الصابرون: قد أثنىٰ الله سبحانه علىٰ الصبر وأهله، ومدحه، وأمر به، وعلق عليه خير الدنيا والآخرة، وقد ذكره في كتابه في نحو تسعين موضعًا، وقد تقدم في النصوص والأحاديث ما فيه وفي فضله ما يدل علىٰ أنه أفضل من الشكر.

ويكفي في فضله قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»**[٢] فذكر ذلك في معرض تفضيل الصبر ورفع درجته علىٰ الشكر، فإنه ألحق الشاكر بالصابر وشبَّهه به، ورتبة المشبَّه به أعلىٰ من رتبة المشبَّه، وهذا كقوله: **«مدمن الخمر كعابد وثن»**[٣] ونظائر ذلك.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٨٦)، وابن ماجه (١٧٦٤)، وحسنه الترمذي.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٣٧٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٦٧٧).

قالوا: وإذا وازنَّا بين النصوص الواردة في الصبر والواردة في الشكر، وجدنا نصوصَ الصبر أضعافَها، ولهذا لمَّا كانت الصلاة والجهاد أفضلَ الأعمال كانت الأحاديثُ فيهما أكثرَ من الأحاديث في سائر الأبواب، فلا تجد الأحاديث النبوية في بابٍ أكثر منها في باب الصلاة والجهاد.

قالوا: وأيضًا فالصبر يدخل في كل باب، بل في كل مسألةٍ من مسائل الدين، ولهذا كان من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

قالوا: وأيضًا فالله سبحانه علَّق على الشكر الزيادة، فقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] وعلق على الصبر الجزاء بغير حساب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

وأيضًا فإنه سبحانه أطلق جزاء الشاكرين، فقال: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقيد جزاء الصابرين بالإحسان، فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٦].

قالوا: وقد صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**يقول الله تعالى: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به**»(١) وفي لفظ: «**كلُّ عملِ ابنِ آدمَ يُضاعَف؛ الحسنةُ بعشرِ أمثالها، قال الله: إلا الصومَ فإنه لي وأنا أجزي به**»(٢) وما ذلك إلا لأنه صَبْرُ النفسِ ومنعُها من شهواتها، كما في الحديث نفسه: «**يدَعُ شهوتَه وطعامَه وشرابَه من أجلي**»(٣) ولهذا قال

(١) أخرجه البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١/ ١٦١).
(٢) أخرجه مسلم (١١٥١/ ١٦٤).
(٣) جزء من الحديث السابق.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن سأله عن أفضل الأعمال: «**عليك بالصوم فإنه لا عِدْلَ له**»[١].

ولمَّا كان الصبر حبسَ النفس عن إجابة داعي الهوىٰ، وكان هذا حقيقةَ الصوم، فإنه حبسُ النفس عن إجابة داعي شهوةِ الطعام والشراب والجماع، فُسِّرَ الصبر في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [البقرة: ٤٥] بأنه الصوم[٢]. وسمِّي شهرُ رمضان: شهرَ الصبر.

قالوا: ويكفي في فضل الصبر علىٰ الشكر قولُه تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١] فجعل فوزهم جزاءَ صبرهم؛ وقولُه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ولا شيء يعدل معيَّته لعبده، كما قال بعض العارفين: «ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة لأنهم نالوا معية الله»[٣].

وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء، كلُّ واحدٍ خيرٌ من الدنيا وما عليها، وهي: صلواته تعالىٰ عليهم، ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] **وهذا مُفهِمٌ لحصر الهُدىٰ فيهم.**

وأخبر أن الصبر من عزم الأمور في آيتين من كتابه[٤] وأمر رسوله أن يتشبَّه بصبرِ أولي العزم من الرسل، وقد تقدم ذكرُ ذلك.

قالوا: وقد دلَّ الدليل علىٰ أن الزهد في الدنيا والتقلُّل منها ما أمكن أفضل من الاستكثار منها، والزهد فيها حالُ الصابر، والاستكثار منها حال الشاكر.

---

(١) أخرجه النسائي (٢٢٢٢)، وصححه ابن خزيمة (١٨٩٣)، وابن حبان (٣٤٢٦).
(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٢٥٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٨٣).
(٣) انظر: «الرسالة القشيرية» (ص ٢٥٧).
(٤) سبق أن ذكر المؤلف آيتي لقمان: ١٧، والشورىٰ: ٤٣. وهناك آية ثالثة، وهي آل عمران: ١٨٦.

قالوا: وقد سُئل المسيح - صلوات الله وسلامه عليه - عن رجلين مرَّا بكنزٍ فتخطاه أحدهما ولم يلتفت إليه، وأخذه الآخر وأنفقه في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ أيهما أفضل؟ فقال: الذي لم يلتفت إليه وأعرض عنه أفضل عند الله.

قالوا: ويدل على صحة هذا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عُرضت عليه مفاتيحُ كنوز الأرض فلم يأخذها، وقال: «**بل أجوع يومًا، وأشبع يومًا**»[١] ولو أخذها لأنفقها كلَّها في مرضاة الله وطاعته، فآثر مقام الصبر عنها والزهد فيها.

قالوا: وقد عُلم أن الكمال الإنساني في ثلاثة أمور: علوم يعرفها، وأعمال يعمل بها، وأحوالٌ تترتَّبُ له على علومه وأعماله.

وأفضل العلم والعمل والحال: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعمل بمرضاته، وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء؛ فهذا أشرف ما في الدنيا، وجزاؤه أشرف ما في الآخرة.

وأجل المقاصد معرفة الله عَزَّوَجَلَّ ومحبَّته، والأنسُ بقربه، والشوقُ إلى لقائه، والتنعُّمُ بذكره؛ وهذا أجلُّ سعادة الدنيا والآخرة، وهذا هو الغاية التي تُطلب لِذاتها.

وإذا عرفتَ هذه القاعدة فالشكر ببذل المال عمل صالح يحصل به للقلب حال، وهو زوال البخل والشحِّ بسبب خروج الدنيا منه، فيتهيَّأ لمعرفة الله ومحبته، فهو دواء للداء الذي في القلب يمنعه من المقصود.

وأما الزاهد فقد استراح من هذا الداء والدواء، وتوفَّرت قُوَّته على استفراغ الوسع

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٧) وقال: حديث حسن.

في حصول المقصود.

ثم أوردوا على أنفسهم سؤالًا، فقالوا: **فإن قيل**: فقد حث الشرع على الأعمال؟

وانفصلوا عنه بأن قالوا: الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدلَّ على أن الدواء يُراد لعينه، ولا أنه أفضل من الشفاء الحاصل به، ولكن الأعمالَ علاجٌ لمرض القلوب، ومرضُ القلوب مما لا يشعر به غالبًا، فوقع الحث على العمل لمقصودٍ وهو شفاء القلب، فالفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داءَ البخل، كالحجَّام يستخرج منك الدم المهلك.

قالوا: وإذا عُرف هذا أن حالَ الصابر حالُ المحافظ على الصحة والقوة، وحال الشاكر حال المتداوي بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم.

❀❀❀❀❀

فصل

ص٢١٩ حجج من يفضل الشاكر على الصابر

قال الشاكرون: لقد تعدَّيتم طوركم، وفضَّلتم مقامًا غيرُه أفضلُ منه، وقدَّمتم الوسيلة على الغاية، والمطلوبَ لغيره على المطلوب لنفسه، والعملَ الكامل على الأكمل، والفاضلَ على الأفضل، ولم تعرفوا للشكر حقَّه ولا وفَّيتموه مرتبته.

وقد قَرَن تعالى ذكرَه الذي هو المراد من الخلق بشكره، وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر، والصبرُ خادم لهما، ووسيلةٌ إليهما، وعونٌ عليهما، قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقرن سبحانه الشكرَ بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروه وآمنوا به فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] أي: إن وفيتم ما خُلِقتم له، وهو الشكر والإيمان، فما أصنع بعذابكم بعد هذا!

وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنَّته عليهم من بين عباده، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقسم الناسَ إلىٰ شَكور وكفور، فأبغضُ الأشياء إليه الكفرُ وأهلُه، وأحبُّ الأشياء إليه الشكرُ وأهلُه، قال تعالىٰ في الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] وقال نبيُّه سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وقال تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وهذا كثير في القرآن يقابل سبحانه بين الشكر والكفر، فهو ضده.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] والشاكرون هم الذين ثبتوا علىٰ نعمة الإيمان، فلم ينقلبوا علىٰ أعقابهم.

وعلَّق سبحانه المزيدَ بالشكر، والمزيدُ منه لا نهاية له، كما لا نهاية لشكره.

وقد وقف سبحانه كثيرًا من الجزاء على المشيئة، كقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: ٢٨] وقوله في الإجابة: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١] وقوله في الرزق: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٣٧] والتوبة: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٥] وفي المغفرة: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩] وأطلق جزاء الشكر إطلاقًا حيث ذُكر، كقوله: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ولمَّا عَرف عدوُّ الله إبليس قَدْر مقامِ الشكر وأنه أجلُّ المقامات وأعلاها، جعل غايتَه أن يسعىٰ في قطع الناس عنه، فقال: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

ووصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] .

وقد أثنىٰ الله سبحانه علىٰ أول رسول بعثه إلىٰ أهل الأرض بالشكر، فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

وفي تخصيص نوح هاهنا بالذكر وخطابِ العباد بأنهم ذريته إشارةٌ إلىٰ الاقتداء به، فإنه أبوهم الثاني، فإن الله تعالىٰ لم يجعل بعد الغرق للخلق نسلًا إلا من ذريته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] فأَمَر الذريةَ أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر لله فانه كان عبدًا شكورًا.

وقد أخبر سبحانه إنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته،

فقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وأمر عبده موسىٰ أن يتلقَّىٰ ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر، فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وأول وصية وَصَّىٰ بها الإنسانَ بعدما عقل عنه الشكرُ له ولوالديه، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وأخبر أن رضاه في شكره، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وأثنىٰ سبحانه علىٰ خليله إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشكر أنعمه، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١].

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغايةُ من خلقه وأمره، بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] فهذا غاية الخلق.

وأما غاية الأمر، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقد صرَّح سبحانه بأنه غايةُ أمرِه وإرسالِه الرسولَ في قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ

رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥١-١٥٢].

قالوا: فالشكر مراد لنفسه، والصبر مراد لغيره، والصبر إنما حُمِد لإفضائه وإيصاله إلىٰ الشكر، فهو خادم الشكر.

وقد ثبت في «الصحيحين»[1] عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قام حتىٰ تفطَّرت قدماه: فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر! قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا!**».

وثبت في «المسند» و«الترمذي»[2] أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لمعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**والله إني لأحبك، فلا تنسَ أن تقول دُبُرَ كلِّ صلاةٍ: اللهم أعِنِّي علىٰ ذكرِك وشكرِك وحُسن عبادتِك**».

وقد ثبت في «صحيح مسلم»[3] عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إن الله ليرضىٰ عن العبد يأكل الأَكلةَ فيحمَدُه عليها، ويشرب الشَّربةَ فيحمَدُه عليها**» فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاءِ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] في مقابلة شكره بالحمد.

---

(١) البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠).
(٢) أحمد (٥/ ٢٤٤)، ولم أقف عليه عند الترمذي، وأخرجه أيضًا أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وصححه ابن حبان (٢٠٢٠).
(٣) برقم (٢٧٣٤).

وذكر ابن أبي الدنيا[١] من حديث عبد الله بن صالح: حدثنا أبو زهير يحيىٰ بن عُطارد القرشي، عن أبيه قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يرزق اللهُ عبدًا الشكرَ فيَحرِمُه الزيادة؛ لأن الله تعالىٰ يقول**»: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال الحسن البصري: «إن الله ليُمتِّع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يُشكَر عليها قلَبَها عذابًا»[٢].

ولهذا كانوا يسمُّون الشكر «الحافظ» فإنه يحفظ النعم الموجودة، و«الجالب» فإنه يجلب النعم المفقودة.

وذكر ابنُ أبي الدنيا[٣] عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال لرجل من هَمْدان: «النعمةُ موصولة بالشكر، والشكر متعلِّق بالمزيد، وهما مقرونان في قَرَن[٤] فلن ينقطع المزيد من الله حتىٰ ينقطع الشكر من العبد».

وقال عمر بن عبد العزيز: «قيِّدوا نعم الله بشكر الله»[٥].

وكان يقال: «الشكر قيد النعم»[٦].

وقال مُطرِّف بن عبد الله: «لأن أعافىٰ فأشكُرَ أحبُّ إليَّ من أن أُبتلىٰ فأصبر»[٧].

---

(١) في كتاب «الشكر» (٣)، وهو مرسل.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١٧).
(٣) في كتاب «الشكر» (١٨).
(٤) أي: مربوطان معًا بحبل.
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (٢٧).
(٦) «تفسير القشيري» (٥/ ٤٤، ١٣١).
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (٢٨).

وقال الحسن: «أكثروا ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر»[١].

وقد أمر الله تعالىٰ نبيه أن يُحدِّث بنعمه، فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحىٰ: ١١] والله تعالىٰ يُحبُّ من عبده أن يرىٰ عليه أثَرَ نعمته، فإن ذلك شكرٌ لها بلسان الحال.

وقال عليُّ بن الجعد: سمعت سفيان الثَّوري يقول: إن داود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «الحمد لله حمدًا كما ينبغي لكرم وجهِ ربي وعزِّ جلالِه، فأوحىٰ الله إليه: يا داود أتعبتَ الملائكة»[٢].

وقال شعبة: حدثنا الفضل بن فَضالة عن أبي رجاء العُطاردي قال: خرج علينا عِمران بن حُصَين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وعليه مِطْرَفُ خزٍّ[٣] لم نره عليه قبلُ ولا بعدُ، فقال: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا أنعم الله علىٰ عبدٍ نعمةً أحبَّ أن يَرىٰ أثَرَ نعمته علىٰ عبده**»[٤].

وقد ذمَّ الله سبحانه الكَنُودَ، وهو: الذي لا يشكر نعمَه. قال الحسن: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] يَعُدُّ المصائب وينسىٰ النعم[٥].

وقد أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب، قال: «**لو**

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (٣٣).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (٣٧).
(٣) المِطرف واحد المَطارف، وهي: أردية من خزٍّ مربعةٌ لها أعلام. انظر: «لسان العرب» (٩/ ٢٢٠).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (٥٠). وأخرجه أيضًا أحمد في «مسنده» (٤/ ٤٣٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٢): «رجاله ثقات».
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (٦٢).

أحسنتَ إلىٰ إحداهنَّ الدهر، ثم رَأَتْ منك شيئًا قالت: ما رأيتُ منك خيرًا قط!»[(١)].

فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج وهي في الحقيقة من الله، فكيف بمن ترك شكر نعمة الله!

وذكر «الترمذي»[(٢)] من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلىٰ آخرها، فسكتوا، فقال: «**لقد قرأتُها علىٰ الجنِّ ليلةَ الجن فكانوا أحسنَ ردًّا منكم، كنت كلَّما أتيت علىٰ قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] قالوا: لا بشيءٍ من نِعَمِك ربَّنا نُكذِّب، فلك الحمد**».

وقال خالد بن معدان: سمعت عبد الملك بن مروان يقول: «ما قال عبدٌ كلمةً أحبَّ إلىٰ الله وأبلغ في الشكر عنده أن يقول: الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا للإسلام»[(٣)].

وقال سليمان التَّيمي: «إن الله سبحانه أنعم علىٰ العباد علىٰ قدره، وكلَّفهم الشكر علىٰ قدرهم»[(٤)].

وكان الحسن يقول إذا ابتدأ حديثه: «الحمد لله، اللهم ربَّنا لك الحمدُ بما خلقتَنا ورزقتَنا، وهديتَنا، وعلَّمتَنا، وأنقذتَنا، وفرَّجتَ عنا، لك الحمدُ بالإسلام والقرآن،

(١) أخرجه البخاري (٢٩)، ومسلم (٩٠٧).
(٢) برقم (٣٢٩١)، وقال: «حديث غريب».
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١٠).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (٨).

ولك الحمدُ بالأهل والمال والمعافاة، كبتَّ عدوَّنا، وبسطتَ رزقَنا، وأظهرتَ أمننا، وجمعتَ فُرقتَنا، وأحسنتَ معافاتَنا، ومن كل ما سألناك ربَّنا أعطيتَنا، فلك الحمدُ علىٰ ذلك حمدًا كثيرًا، لك الحمدُ بكل نعمةٍ أنعمتَ بها علينا في قديم أو حديث أو سرٍّ أو علانية أو خاصةٍ أو عامةٍ أو حيٍّ أو ميِّتٍ أو شاهدٍ أو غائب، لك الحمدُ حتىٰ ترضىٰ، ولك الحمدُ إذا رضيت»[1].

وذكر ابن أبي الدنيا[2] عن صدقةَ بن يَسارٍ قال: بينا داود عَلَيْهِ السَّلَامُ في مِحرابه إذ مرَّتْ به ذرَّةٌ، فنظر إليها وفكَّر في خلقها وعجِب منها وقال: ما يعبأ الله بهذه! قال: فأنطقها الله فقالت: يا داود، أتُعجبك نفسُك! فوالذي نفسي بيده لأنا علىٰ ما آتاني الله من فضله أَشكَرُ منك علىٰ ما آتاك الله من فضله.

قال ابن المبارك[3]: وأخبرنا مِسْعَر عن علقمة بن مَرْثَد عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لعلَّنا نلتقي في اليوم مرارًا يسأل بعضُنا عن بعض، ولم نُرد بذلك إلا ليحمد الله عَزَّ وَجَلَّ».

وقال مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] قال: «لا إله إلا الله»[4].

وقال ابنُ عُيَينة: «ما أنعم الله علىٰ العباد نعمة أفضل من أَنْ عرَّفهم (لا إله إلا

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١١).
(٢) في كتاب «الشكر» (٣٥).
(٣) في «الزهد» (٢٠٥).
(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٧٨).

الله) قال: وإنَّ (لا إله إلا الله) لهم في الآخرة كالماء في الدنيا»[١].

قال ابن أبي الدنيا[٢]: حدثنا عبد الله بن داود عن سفيان في قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] قال: «يُسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر» وقال غير سفيان: كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة.

وسُئل ثابتٌ البُناني عن الاستدراج، فقال: «ذلك مكرُ اللهِ بالعباد المضيِّعين».

وقال يونس في تفسيرها: إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة، فحفظها وأبقىٰ عليها، ثم شكر الله بما أعطاه، أعطاه أشرف منها. وإذا هو ضيَّع الشكرَ استدرجه الله، وكان تضييعه الشكر استدراجًا[٣].

وقال أبو حازم: «نعمة الله فيما زوىٰ عني من الدنيا أعظمُ من نعمته فيما أعطاني منها، إني رأيته أعطاها أقوامًا فهلكوا. وكل نعمة لا تُقرِّبُ من الله فهي بليَّة، وإذا رأيت اللهَ يتابع عليك نِعَمَه وأنت تعصيه فاحذَرْه»[٤].

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا جاءه أمر يسرُّه خرَّ للهِ ساجدًا شكرًا لله عَزَّ وَجَلَّ[٥].

وقال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خرج علينا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتوجَّه

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (٩٦).
(٢) في كتاب «الشكر» (١١٥-١١٦).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١١٧).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١١٨، ٢٠، ٣١) مفرَّقًا.
(٥) أخرجه أبو داود (٢٧٧٤)، والترمذي (١٥٧٨)، وابن ماجه (١٣٩٤) من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال الترمذي: حسن غريب. وصححه الحاكم (١/ ٢٧٦).

نحو صدقته، فدخل فاستقبل القبلة، فخرَّ ساجدًا فأطال السجود، فقلت: يا رسول الله سجدتَ سجدةً خشيتُ أن يكون الله قد قبض نفسَك فيها! فقال: «**إن جبريل أتاني فبشَّرَني أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول لك: من صلَّىٰ عليك صلَّيتُ عليه، ومن سلَّم عليك سلَّمتُ عليه، فسجدت لله شكرًا**» ذكره أحمد[(١)].

وذكر سعيد بن منصور: أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سجد حين جاءه قتلُ مسيلمة[(٢)].

وذكر أحمد[(٣)]: أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سجد حين وجد ذا الثُّدَيَّة في الخوارج.

وسجد كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بشِّر بتوبة الله عليه[(٤)]. والقصة في «الصحيحين»[(٥)].

فصل

ص٢٦٣ من أسباب شكر النعم: النظر إلىٰ المبتلَين

ومن دقيق نعم الله علىٰ العبد التي لا يكاد يُفطَن لها أنه يُغلِق عليه بابه، فيُرسِل اللهُ إليه بمن يطرق عليه الباب يسأله شيئًا من القوت؛ ليُعرِّفه نعمته عليه.

وقال سلَّام بن أبي مطيع: دخلتُ علىٰ مريض أعوده فإذا هو يئنُّ، فقلتُ له: اذكر المطروحين علىٰ الطريق، اذكر الذين لا مأوىٰ لهم ولا لهم مَن يَخدُمهم. قال:

(١) في «المسند» (١/ ١٩١)، وصححه الضياء في «المختارة» (٩٢٦).
(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٥٩٦٣).
(٣) في «المسند» (١/ ١٤٧).
(٤) أخرجه ابن ماجه (١٣٩٣).
(٥) البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته يقول لنفسه: اذكر المطروحين في الطريق، اذكر من لا مأوىٰ له ولا له مَن يَخدُمه[(١)].

وقال عبد الله بن أبي نوح: قال لي رجل علىٰ بعض السواحل: كم عاملتَه - تبارك اسمُه - بما يكره فعاملك بما تحب؟ قلت: ما أُحصي ذلك كثرةً. قال: فهل قصدتَ إليه في أمرٍ كربك فخذلك؟ قلت: لا والله، ولكنه أحسن إليَّ وأعانني. قال: فهل سألتَه شيئًا فأعطاكه؟ قلت: وهل منعني شيئًا سألتُه! ما سألتُه شيئًا قطُّ إلا أعطاني، ولا استغثت به إلا أغاثني. قال: أرأيت لو أن بعض بني آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنت أقدر له علىٰ مكافأةٍ ولا جزاءٍ. قال: فربُّك أحقُّ وأحرىٰ أن تُدئب نفسك له في أداء شكره، وهو المحسن قديمًا وحديثًا إليك، واللهِ لَشُكرُه أيسرُ من مكافأة عباده، إنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رضي من العباد بالحمد شكرًا[(٢)].

وقال وهب: «عبدَ اللهَ عابدٌ خمسين عامًا، فأوحىٰ الله إليه إني قد غفرتُ لك. قال: أي ربِّ، وما تغفر لي ولم أذنب؟ فأذن الله لعِرقٍ في عنقه فضَرَب عليه، فلم يَنَم ولم يُصلِّ، ثم سكن فنام، فأتاه مَلَكٌ فشكا إليه فقال: ما لقيتُ مِن ضَرَبان العِرق؟ فقال الملك: إن ربك يقول: عبادتُك خمسين سنة تَعدِلُ سكون العرق»[(٣)].

وذكر ابن أبي الدنيا[(٤)] أن داود قال: «يا ربِّ أخبرني ما أدنىٰ نعمتك عليَّ؟ فأوحىٰ الله إليه: يا داود تَنَفَّسْ. فتنفَّسَ، قال: هذا أدنىٰ نعمتي عليك».

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١٤٠).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١٤١).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١٤٨).
(٤) في كتاب «الشكر» (١٤٩).

فصل

ص٢٦٦ لا يمكن حمد العبد وشكره أن يوافي نعمة من نعم الله

وبهذا يتبيَّن معنىٰ الحديث الذي رواه أبو داود[١] من حديث زيد بن ثابت وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «**إن الله لو عذَّب أهلَ سماواته وأهلَ أرضه لعذَّبهم وهو غير ظالمٍ لهم، ولو رحمهم لكانت رحمتُه خيرًا لهم من أعمالهم**».

والحديثِ الذي في «الصحيح»[٢]: «**لن يُنجي أحدًا منكم عملُه**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني اللهُ برحمة منه وفضل**» فإن أعمال العبد لا تُوافي نعمة من نعم الله عليه.

أما قول بعض الفقهاء: إن من حلف أن يحمد الله بأفضل أنواع الحمد كان برُّ يمينه أن يقول: الحمد لله حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده.

فهذا ليس بحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا عن أحدٍ من الصحابة، وإنما هو إسرائيليٌّ عن آدم[٣]. وأصحُّ منه: «**الحمد لله غيرَ مكفِيٍّ ولا مُودَّعٍ ولا مُستغنًىٰ عنه ربَّنا**»[٤].

ولا يمكن حمدَ العبد وشكرَه أن يوافي نعمةً من نعم الله، فضلًا عن موافاةِ جميع

(١) برقم (٤٦٩٩) من حديث زيد بن ثابت وابن مسعود وأبيِّ بن كعب وحذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وليس فيه ذكر ابن عبَّاس. وأخرجه أيضًا أحمد (٥/ ١٨٢)، وابن ماجه (٧٧)، وصححه ابن حبان (٧٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٠٤١)، وضعفه ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٧١).

(٤) أخرجه البخاري (٥٤٥٨، ٥٤٥٩).

نعمه، ولا يكون فعلُ العبد وحمدُه مكافئًا للمزيد.

ولكن يُحمل علىٰ وجه يصح، وهو أن الذي يستحقُّه الله عَزَّوَجَلَّ من الحمدِ حمدًا يكون موافيًا لنعمه ومكافئا لمزيده، وإن لم يقدر العبد أن يأتي به، كما إذا قال: «الحمد لله ملءَ السماوات وملءَ الأرض وملءَ ما بينهما، وملءَ ما شئت من شيء بعد، وعددَ الرمال والتراب والحصىٰ والقطر، وعددَ أنفاس الخلائق، وعددَ ما خلق الله وما هو خالق» فهذا إخبارٌ عمَّا يستحقُّه من الحمد لا عمَّا يقع من العبد من الحمد.

❖❖❖❖❖

فصل

ص٢٧٠ سؤال العافية دليل علىٰ فضل الشكر علىٰ الصبر

ويدل علىٰ فضل الشكر علىٰ الصبر أن الله سبحانه يُحِبُّ أن يُسألَ العافية، وما سُئل شيئًا أحبَّ إليه من العافية، كما في «المسند»[1] عن أبي صالح عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قام أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على المنبر ثم قال: «**سَلُوا اللهَ العافية، فإنه لم يُعْطَ عبدٌ بعدَ اليقينِ خيرًا من العافية**».

وفي حديث آخر: «**إن الناس لم يُعطَوا في هذه الدنيا شيئًا أفضلَ من العفو والعافية، فسلوهما الله** عَزَّوَجَلَّ»[2].

وقال لعمه العباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**يا عمِّ أكثرِ الدعاءَ بالعافية**»[3].

---

(١) (١/ ٣، ٤) من غير هذا الطريق، وأخرجه أيضا الترمذي (٣٥٥٨)، وابن ماجه (٣٨٤٩)، وحسَّنه الترمذي وصححه ابن حبان (٩٥٠).
(٢) أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (١٠٧٢٢).
(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٩٠٨)، وصححه الحاكم (١/ ٥٢٩).

وفي «الترمذي»[١] عنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قلت: يا رسول الله، علِّمْني شيئًا أسأله الله. قال: «**سَلِ اللهَ العافية**» فمكثتُ أيامًا ثم جئت فقلت: علِّمْني شيئًا أسأله الله. فقال لي: «**يا عباس، يا عمَّ رسول الله، سلِ الله العافيةَ في الدنيا والآخرة**».

وقال في دعائه يوم الطائف: «**إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسعُ لي**»[٢] فلاذ بعافيته كما استعاذ بها في قوله: «**أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»[٣].

وفي حديث آخر: «**سلوا الله العفو والعافية والمعافاة**»[٤].

وهذا السؤال متضمِّنٌ العفوَ عما مضىٰ، والعافيةَ في الحال، والمُعافاةَ في المستقبل بدوام العافية واستمرارها.

وفي «صحيح مسلم»[٥] أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاد رجلًا قد خَفَتَ فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل كنت تدعو اللهَ بشيء أو تسأله إياه؟**» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبني به في الآخرة فعجِّله لي في الدنيا. فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سبحان الله! لا تطيقه ولا تستطيعه! أفلا قلت: اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار**» فدعا الله له فشفاه.

---

(١) برقم (٣٥١٤)، وصححه.
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٤/ ١٣٩- ١٤١)، واختاره الضياء في «المختارة» (٩/ ١٨٠- ١٨١).
(٣) أخرجه مسلم (٤٨٦).
(٤) أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (١٠٧١٧)، وأبو يعلىٰ (٤٩).
(٥) مسلم (٢٦٨٨).

وفي «السنن»[١] عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قال حين يصبح: (اللهم ما أصبح بي من نعمةٍ أو بأحدٍ من خلقك فمنك وحدَك لا شريك لك، فلك الحمدُ ولك الشكر) إلا أدى شكر ذلك اليوم**».

وقال وهب بن منبه: «رؤوس النعم ثلاثة: فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمةٌ إلا بها، والثانية نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها، والثالثة نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا به»[٢].

وقَدِم سعيدُ الجُرَيري من الحج، فجعل يقول: أنعم الله علينا في سفرنا بكذا وكذا، ثم قال: «تَعداد النِّعَم من الشكر»[٣].

وقال بكر بن عبد الله: «يا بنَ آدم إن أردتَ أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمِّض عينيك»[٤].

وقال مقاتل في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] قال: «أما الظاهرة فالإسلام، وأما الباطنة فسَتْرُه عليك المعاصي»[٥].

وقال ابنُ شَوذَب: قال عبد الله، يعني ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن للهِ على أهل النار منَّةً، لو شاء أن يُعذِّبَهم بأشدَّ من النار لعذَّبهم»[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٧٣)، والنسائي في «الكبرى» (٩٨٣٥)، وصححه ابن حبان (٨٦١).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١٧٢).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١٧٣).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١٨٢).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١٨٣).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١٨٤).

وقال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «من رأىٰ صاحب بلاءٍ فقال: (الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني عليك وعلىٰ جميع خلقه تفضيلًا) فقد أدَّىٰ شكر تلك النعمة»[١].

وقال كعب: «ما أنعمَ الله علىٰ عبدٍ من نعمة في الدنيا، فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه اللهُ نفعَها في الدنيا، ورفع له بها درجةً في الأخرىٰ. وما أنعم الله علىٰ عبدٍ نعمة في الدنيا فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها لله، إلا منعه الله نفعَها في الدنيا، وفتح له طبقًا من النار يُعذِّبه إن شاء، أو يتجاوز عنه»[٢].

وقالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «ما من عبدٍ يشرب الماء القَراح فيدخل بغير أذىٰ، ويخرج بغير أذىٰ إلا وجب عليه الشكر»[٣].

وكتب بعض العلماء إلىٰ أخ له: «أما بعد: فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فما ندري أيهما نشكر: أجميلَ ما نَشَر أم قبيح ما سَتَر؟»[٤].

وقال ابن المبارك[٥]: سمعت عليَّ بن صالحٍ يقول في قوله تعالىٰ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] قال: «أي: مِن طاعتي».

والتحقيق: أن الزيادة من النعم، وطاعتُه مِن أجلِّ نعمه.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١٨٧).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١٨٩).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١٩٢). «الماء القَراح»: الذي لم يخالطه شيء يطيَّب به كالعسل والزبيب. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٤/ ٣٦).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (١٩٤).
(٥) في «الزهد» (٣٢٠).

وقال عبد الله بن المبارك[١]: أخبرنا المُثنَّىٰ بن الصبَّاح، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابرًا شاكرًا، ومن لم تكونا فيه لم يَكتُبْه صابرًا ولا شاكرًا؛ من نظر في دينه إلىٰ من هو فوقه فاقتدىٰ به، ومن نظر في دنياه إلىٰ من هو دونه فحَمِد الله علىٰ ما فضَّله به عليه، كتبه الله صابرًا شاكرًا؛ ومن نظر في دينه إلىٰ من هو دونه ونظر في دنياه إلىٰ من هو فوقه فأَسِفَ علىٰ ما فاته منه، لم يكتُبْه اللهُ صابرًا ولا شاكرًا**».

وبهذا الإسناد عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موقوفًا عليه: «**أربعُ خصالٍ من كنَّ فيه بنىٰ الله له بيتًا في الجنة: من كان عصمةُ أمره: (لا اله إلا الله) وإذا أصابَتْه مصيبةٌ قال: (إنا لله وإنا إليه راجعون) وإذا أعطي شيئًا قال: (الحمد لله) وإذا أذنب ذنبًا قال: (أستغفر الله)**»[٢].

وقال ابن المبارك[٣]: عن شِبْل عن ابن أبي نَجِيح عن مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء: ٣] قال: «لم يأكل شيئًا إلا حَمِد اللهَ عليه، ولم يشرب شرابًا قطُّ إلا حمد الله عليه، ولم يمشِ مشيًا قطُّ إلا حمد الله عليه، ولم يبطش بشيءٍ قطُّ إلا حمد الله عليه، فأثنىٰ الله عليه أنه كان عبدًا شكورًا».

وقال محمد بن كعب القُرَظي: «كان نوحٌ إذا أكل قال: الحمد لله، وإذا شرب قال:

---

(١) في «الزهد» (١٨٠)، وأخرجه أيضًا الترمذي (٢٥١٢) وقال: حسن غريب.
(٢) في «الزهد» (١٨٢).
(٣) في «الزهد» (٩٤١).

الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله، وإذا ركب قال: الحمد لله، فسمَّاه الله عبدًا شكورًا»[١].

وقال ابن أبي الدنيا[٢]: بلغني عن بعض الحكماء قال: «لو لم يعذِّبِ اللهُ علىٰ معصيته لكان ينبغي ألا يُعصىٰ لشكر نعمته».

*****

ص٢٨٦
حقوق الله علىٰ عباده نوعان

فصل

ولله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علىٰ عبده نوعان من الحقوق لا ينفك منهما:

أحدهما: أمره ونهيه، الذي هو محضُ حقِّه عليه.

والثاني: شكر نعمه، التي أنعم بها عليه.

فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره، فمشهد الواجب عليه لا يزال يُشهده تقصيرَه وتفريطَه وأنه محتاج إلىٰ عفو الله ومغفرته، فإن لم يتداركه بذلك هلك.

وكلَّما كان أفقهَ في دين الله كان شهودُه للواجب عليه أتمَّ، وشهودُه لتقصيره أعظم، وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله.

وأكثر الديَّانين لا يعبؤون منها إلا بما يشاركهم فيه عموم الناس.

*****

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (٢٠٧).
(٢) في كتاب «الشكر» (٢٠٨).

فصل

ص٢٨٧ شهود النعمة لا يدع له رؤية أي حسنة

وأما شهودُ النعمة فإنه لا يدَعُ له رؤية حسنةٍ من حسناته أصلًا ولو عمل أعمال الثقلين، فإن نعم الله سبحانه عليه أكثرُ من أعماله، وأدنىٰ نعمةٍ من نعمه تستنفد عملَه، فينبغي للعبد ألا يزال ينظر في حق الله عليه.

فمشاهدةُ العبد النعمةَ والواجبَ لا تدع له حسنةً يراها، ولا يزال مُزْريًا علىٰ نفسه ذامًّا لها.

وما أقربه من الرحمة إذا أعطىٰ هذين المشهدين حقَّهما، والله المستعان.

الباب الحادي والعشرون

ص٢٨٩

في الحكم بين الفريقين، والفصل بين الطائفتين

فنقول: كل أمرَين طُلبت الموازنةُ بينهما ومعرفةُ الراجح منهما علىٰ المرجوح، فإن ذلك لا يمكن إلا بعد معرفة كلٍّ منهما، وقد ذكرنا حقيقة الصبر وأقسامَه وأنواعَه، فنذكر حقيقة الشكر وماهيته.

قال في «الصحاح»: الشكرُ: الثناء علىٰ المحسن بما أَولاه من المعروف، يقال: شكرتُه، وشكرتُ له، واللام أفصح.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] يحتمل أن يكون مصدرًا كالقُعود، وأن يكون جمعًا كالبُرود.

والشكران خلاف الكفران، وتشكَّرت له: مثل شكرت له. والشَّكُورُ من الدوابِّ: ما يكفيه العلف القليل. واشتكرت السماء: اشتد وقع مطرها. واشتكر الضرع: امتلأ لبنًا[(١)].

فتأمل هذا الاشتقاق وطابق بينه وبين الشكر المأمور به، وبين الشكر الذي هو جزاء الرب الشَّكور، كيف نجد في الجميع معنىٰ الزيادة والنماء.

ويقال أيضًا: دابَّةٌ شكور، إذا أظهرت من السِّمَن فوقَ ما تُعطىٰ من العلف.

وشكر العبد يدور علىٰ ثلاثة أركان، لا يكون شَكورًا إلا بمجموعها:

---

(١) (٢/ ٧٠٢- ٧٠٣) باختصار.

أحدها: اعترافه بنعمة الله عليه.

والثاني: الثناء عليه بها.

والثالث: الاستعانة بها علىٰ مرضاته.

وأما قول الناس في الشكر:

فقالت طائفة: هو الاعتراف بنعمة المنعم علىٰ وجه الخضوع.

وقيل: الشكر: الثناءُ علىٰ المحسن بذكر إحسانه إليه، فشكر العبد لله ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه.

وقيل: شكر النعمة: مشاهدة المنة، وحفظ الحرمة، والقيام بالخدمة.

وقيل: شكر النعمة أن ترىٰ نفسك فيها طفيليًّا.

وقيل: الشكر: معرفه العجز عن الشكر.

ويقال: الشكر علىٰ الشكر أتمُّ من الشكر، وذلك أن ترىٰ شكرك بتوفيقه، وذلك التوفيق من أجلِّ النعم عليك، تشكر علىٰ الشكر، ثم تشكره علىٰ شكر الشكر إلىٰ ما لا يتناهىٰ.

وقيل: الشكر: إضافة النعم إلىٰ مُوليها بنعت الاستكانة.

وقال الجنيد: «الشكر: ألا ترىٰ نفسك للنعمة أهلًا».

وقيل: الشكر: استفراغ الطاقة في الطاعة.

وقيل: الشاكر: الذي يشكر علىٰ الموجود، والشكور: الذي يشكر علىٰ المفقود.

وقيل: الشاكر: الذي يشكر علىٰ الرفد، والشكور: الذي يشكر علىٰ الردّ.

وقيل: الشاكر: الذي يشكر علىٰ النفع، والشكور: الذي يشكر علىٰ المنع.

وقيل: الشاكر: الذي يشكر علىٰ العطاء، والشكور: الذي يشكر علىٰ البلاء.

وقيل: إذا قصرت يدك عن المكافأة، فليَطُل لسانك بالشكر.

والشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح: فالقلب للمعرفة والمحبة، واللسان للثناء والحمد، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفِّها عن معاصيه.

قال الشاعر:

أفادتكم النَّعماءُ عندي ثلاثةً ... يدي ولساني والضمير المُحجَّبا[1]

والشكر أخصُّ بالأفعال، والحمدُ أخص بالأقوال، وسبب الحمد أعمُّ من سبب الشكر، ومتعلَّق الشكر وما به الشكرُ أعمُّ مما به الحمد. فما يُحمَد الرب تعالىٰ عليه أعمُّ مما يشكر عليه، فإنه يُحمَد علىٰ أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه، ويُشكَر علىٰ نعمه. وما يُحمَد به أخصُّ مما يشكر به، فإنه يشكر بالقلب واللسان والجوارح، ويُحمَد بالقلب واللسان.

---

(١) انظر: «الكشاف» (تفسير سورة الفاتحة).

ص٢٩٤ كل من الصبر والشكر داخل في حقيقة الآخر

فصل

إذا عُرف هذا فكلٌّ من الصبر والشكر داخل في حقيقة الآخر لا يمكن وجوده إلا به، وإنما يُعبَّر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه والأظهر منه، وإلا فحقيقة الشكر إنما يلتئم من الصبر والإرادة والفعل، فإن الشكر هو العمل بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ وتركُ معصيته، والصبر أصل ذلك.

فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عينُ الشكر، وإذا كان الصبر مأمورًا به فأداؤه هو الشكر.

فإن قيل: فهذا يُفهَم منه اتحاد الصبر والشكر، وأنهما اسمان لمسمًّى واحد، وهذا مُحال عقلًا ولغةً وعرفًا، وقد فرَّق الله سبحانه بينهما.

قيل: بل هما معنيان متغايران، وإنما بيَّنَّا تلازُمَهما وافتقارَ كلٍّ واحدٍ منهما في وجود ماهيته إلى الآخر، ومتى تجرَّد الشكر عن الصبر بطل كونه شكرًا، وإذا تجرد الصبر عن الشكر بطل كونه صبرًا. أما الأول فظاهر، وأما الثاني فإنه إذا تجرَّد عن الشكر كان كَفورًا، ومنافاة الكَفور للصبر أعظم من منافاة السَّخوط.

فإن قيل: بل هاهنا قسم آخر، وهو ألا يكون كَفورًا ولا شَكورًا، بل صابرًا على مَضَضٍ وكراهة شديدة، فلم يأتِ بحقيقة الشكر ولم يخرج عن ماهية الصبر.

قيل: كلامُنا في الصبر المأمور به الذي هو طاعة، لا في الصبر الذي هو تجلُّدٌ كصبر البهائم، وصبرُ الطاعة لا يأتي به إلا شاكر، ولكن اندرج شكره في صبره فكان الحُكْمُ

للصبر، كما اندرج صبر الشكور في شكره فكان الحكم للشكر.

فمقامات الإيمان لا تُعدَم بالتنقل فيها بل تندرج وينطوي الأدنىٰ في الأعلىٰ كما يندرج الإيمان في الإحسان، وكما يندرج الصبر في مقامات الرضا، لا أن الصبر يزول، ويندرج الرضا في التفويض، ويندرج الخوف والرجاء في الحُبِّ، لا أنهما يزولان.

فالمقدور الواحد يتعلق به الشكر والصبر سواءٌ كان محبوبًا أو مكروهًا، فالفقر مثلًا يتعلق به الصبر وهو أخصُّ به لما فيه من الكراهة، ويتعلق به الشكر لما فيه من النعمة، فمن غلب شهود نعمته وتلذَّذ به واستراح واطمأن إليه عدَّه نعمةً يشكر عليها، ومن غلب شهود ما فيه من الابتلاء والضيق والحاجة عدَّه بليةً يصبر عليها، وعكسه الغنىٰ.

علىٰ أن الله سبحانه ابتلىٰ العبادَ بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب، وعدَّ ذلك كلَّه ابتلاء، فقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وقال: هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العُلوي والسُّفلي، وقدَّر أجَلَ الخلق، وخلق ما علىٰ الأرض للابتلاء والاختبار، وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر والسرَّاء والضرَّاء، فالابتلاء بالنعم من الغنىٰ والعافية والجاه والقدرة وتأتِّي

الأسباب أعظمُ الابتلاءين، والصبر علىٰ طاعة الله عَزَّوَجَلَّ أشقُّ الصبرين، كما قال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: «ابتُلينا بالضرَّاء فصبرنا، وابتُلينا بالسرَّاء فلم نصبر»(١).

والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها وأذىٰ الخلق قد تكون أعظمَ النعمتين، وفرضُ الشكر عليها أوجب من الشكر علىٰ أضدادها، فالرب تعالىٰ يبتلي بنعمه ويُنعم بابتلائه.

غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد في أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره لا يُستغنىٰ عنهما طرفة عين.

والسؤال عن أيهما أفضل كالسؤال عن الحبس والحركة أيهما أفضل؟ وعن الطعام والشراب أيهما أفضل؟ وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل؟

فالمأمور لا يؤدَّىٰ إلا بصبر وشكر، والمحظور لا يُترك إلا بصبر وشكر.

وأما المقدور الذي يقدَّر علىٰ العبد من المصائب فمتىٰ صبر عليه اندرج شكره في صبره، كما يندرج صبر الشاكر في شكره.

ومما يوضح هذا: أن الله سبحانه امتحن العبد بنفسه وهواه وأوجب عليه جهادهما في الله، فهو في كل وقت في مجاهدةِ نفسه حتىٰ يأتيَ بالشكر المأمور به ويصبرَ عن الهوىٰ المنهي عن طاعته، فلا ينفكُّ العبد عنهما، غنيًّا كان أو فقيرًا، معافًىٰ أو مبتلًىٰ.

وهذه هي مسألة الغنيِّ الشاكر والفقير الصابر؛ أيهما أفضل؟

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٤) عن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقال: حديث حسن.

وللناس فيها ثلاثة أقوال: وهي التي حكاها أبو الفَرَج وغيره في عموم الصبر والشكر أيهما أفضل، وقد احتجَّت كلُّ فرقة بحجج وأدلة علىٰ قولها.

والتحقيق أن يُقال: أفضلُهما أتقاهما لله، فإن فُرِض استواؤهما في التقوىٰ استوَيا في الفضل، فإن الله سبحانه لم يُفضِّل بالفقر والغنىٰ كما لم يُفضِّل بالعافية والبلاء، وإنما فَضَّل بالتقوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا فضلَ لعربيٍّ علىٰ عَجَميٍّ، ولا فضلَ لعجمي علىٰ عربي إلا بالتقوىٰ، الناسُ من آدمَ وآدمُ من تراب**»[١].

والتقوىٰ مبنية علىٰ أصلين: الصبر والشكر، وكلٌّ من الغني والفقير لا بدَّ له منهما، فمن كان صبرُه وشكرُه أتمَّ كان أفضل.

فإن قيل: فإذا كان صبر الفقير أتمَّ وشكر الغني أتمَّ فأيهما أفضل؟

قيل: أفضلهما أتقاهما لله في وظيفته ومقتضىٰ حاله، ولا يصحُّ التفضيل بغير هذا البتة، فان الغنيَّ قد يكون أتقىٰ لله في شكره من الفقير في صبره، وقد يكون الفقير أتقىٰ لله في صبره من الغني في شكره، فلا يصح أن يقال: هذا بِغِناه أفضل ولا هذا بفقره أفضل.

ولا يصحُّ أن يقال: هذا بالشكر أفضل من هذا بالصبر، ولا بالعكس، لأنهما مطيَّتان للإيمان لا بدَّ منهما، بل الواجب أن يقال: أَقْوَمُهما بالواجب والمندوب هو الأفضل، فإن

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٤١١) دون قوله: «الناس من آدم وآدم من تراب»، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٧٠٠). وأخرج الجملة الأخيرة أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٢٧٠) وقال: «حديث غريب».

التفضيل تابع لهذين الأمرين، كما قال تعالىٰ في الأثر الإلٰهي: «**ما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداءِ ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبَّه**»[(١)].

فأيُّ الرجلين كان أقوَمَ بالواجبات وأكثرَ نوافلَ كان أفضل.

فإن قيل: فقد ثبت عن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**يدخل فقراءُ أمَّتي الجنةَ قبلَ أغنيائهم بنصفِ يوم، وذلك خمسمائة عام**»[(٢)].

قيل: هذا لا يدل علىٰ فضلهم علىٰ الأغنياء في الدرجة وعلوِّ المنزلة وإن سبقوهم في الدخول، فقد يتأخَّر الغنيُّ والسلطان العادل في الدخول لحسابه، فإذا دخل كانت درجتُه أعلىٰ ومنزلتُه أرفعَ، كسَبْقِ الفقير القَفَل[(٣)] في المضايق وغيرها، ويتأخَّر صاحب الأحمال بعده.

فإن قيل: فقد قال صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للفقراء لما شكَوا إليه زيادةَ عملِ الأغنياء عليهم بالعتق والصدقة: «**ألا أدلُّكم علىٰ شيءٍ إذا فعلتموه أدركتم به من سبقكم؟**» فدلَّهم علىٰ التسبيح والتحميد والتكبير عقب كل صلاة، فلما سمع الأغنياء ذلك عملوا به، فذكروا ذلك للنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**ذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء**»[(٤)].

وهذا يدلُّ علىٰ ترجيح حال الغني الشاكر.

قيل: هذا حجة للقول الذي نصرناه، وهو: أن أفضلَهما أكثرُهما نوافل، فإن استويا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٥٤)، وابن ماجه (٤١٢٢)، وصححه الترمذي، وابن حبان (٦٧٦).
(٣) القَفَل بمعنىٰ القافلة. انظر: «لسان العرب» (١١/ ٥٦٠).
(٤) أخرجه مسلم (٥٩٥)، وأخرجه أيضا البخاري مختصرًا (٨٤٣).

استويا، وهاهنا قد ساوىٰ الأغنياءُ الفقراءَ في أعمالهم المفروضة والنافلة، وزادوا عليهم بنوافل العتق والصدقة، ففضلوهم بذلك، فساوَوهم في صبرهم علىٰ الجهاد والأذىٰ في الله والصبر علىٰ المقدور، وزادوا عليهم بالشكر بنوافل المال، فلو كان للفقراء بصبرهم نوافلُ تزيد علىٰ نوافل الأغنياء لفضلوهم بها.

فإن قيل: فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُرضت عليه مفاتيحُ كنوز الدنيا فردَّها وقال: «**بل أشبع يومًا وأجوع يومًا**»[١].

وقال هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: خرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدنيا ولم يشبَعْ من خبز البُرّ[٢]. ومات ودِرعُه مرهونةٌ عند يهوديٍّ علىٰ طعامٍ أخذه لأهله[٣].

وقال الإمام أحمد[٤]: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن عُمارة بن القَعْقاع، عن أبي زُرْعة، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم اجعَلْ رزقَ آلِ محمدٍ قوتًا**».

ولم يكن اللهُ سبحانه ليختار لرسوله إلا الأفضل، هذا مع أنه لو أخذ الدنيا لأنفقها كلَّها في مرضاة الله عَزَّ وَجَلَّ ولكان شكرُه بها فوقَ شكر جميع العالمين.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٧)، وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» رقم (١٨)، وهو في مسلم (٢٩٧٠) بنحوه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣).

(٤) في «الزهد» (٣٦)، وفي «المسند» (٢/ ٤٤٦)، وأخرجه أيضًا البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥).

قيل: قد احتج بحال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلٌّ واحدةٍ من الطائفتين.

والتحقيق: أن الله سبحانه جمع له بين المقامين كليهما علىٰ أتم الوجوه، فكان سيدَ الأغنياء الشاكرين وسيدَ الفقراء الصابرين، فحصل له من الصبر علىٰ الفقر ما لم يحصل لأحدٍ سواه، ومن الشكر علىٰ الغنىٰ ما لم يحصل لغني سواه.

ومن تأمل سيرته وجد الأمر كذلك، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصبرَ الخلق في مواطن الصبر، وأشكرَ الخلق في مواطن الشكر، وربه تعالىٰ كمَّلَ له مراتب الكمال فجعله في أعلىٰ رتب الأغنياء الشاكرين، وفي أعلىٰ مراتب الفقراء الصابرين؛ قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٨].

وأجمع المفسرون علىٰ أن العائل هو الفقير.

والمقصود أنه سبحانه جعل نبيه غنيًّا شاكرًا بعد أن كان فقيرًا صابرًا، فلا تحتجُّ به طائفة لحالها إلا كان للطائفة الأخرىٰ أن تحتجَّ به أيضًا لحالها.

وفي حديث ابن عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الذي رواه مسلم في «صحيحه» عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن فقراءَ المهاجرين يسبقون الأغنياءَ يومَ القيامة بأربعين خريفًا**»(١).

فهذا الحديث وأمثاله صحيح صريح في سبق فقراء الصحابة إلىٰ الجنة لأغنيائهم، وهم في السبق متفاوتون؛ فمنهم من يسبق بخمسمائة عام، ومنهم من يسبق بأربعين عامًا.

ولا يقدح ذلك في منزلة المتأخرين في الدخول، فإنهم قد يكونون أرفعَ منزلةً ممن سبقهم إلىٰ الدخول وإن تأخَّروا بعدهم للحساب؛ فإن الإمام العادلَ يُوقَف للحساب

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٩٧٩).

ويسبقه من لم يلِ شيئًا من أمور المسلمين إلىٰ الجنة، فإذا دخل الإمامُ العادلُ بعدَه كانت منزلتُه أعلىٰ من منزلة الفقير، بل يكون أقربَ الناس من الله منزلةً.

كما في «صحيح مسلم»[1] عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**المُقْسِطون عند الله يومَ القيامة علىٰ منابِرَ من نورٍ عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدِلُون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا**».

وفي «الترمذي»[2] من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أحبَّ الناس إلىٰ الله يومَ القيامة وأقربَهم منه مجلسًا إمامٌ عادل، وأبغضَ الناس إلىٰ الله يوم القيامة وأشدَّهم عذابًا إمامٌ جائر**».

فالإمام العادل والغنيُّ قد يتأخر دخوله للحساب، ويكون بعد الدخول أرفع منزلة من الفقير السابق.

ولا يلزم من احتباس عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله حتىٰ يُحاسِبَه اللهُ عليه ثم يَلحقَ برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، غضاضةٌ عليه ولا نقصٌ من مرتبته، ولا يضادُّ ذلك سَبْقَه وكونَه مشهودًا له بالجنة.

وأما حديثُ دخوله الجنة زحفًا، فالأمر كما قال فيه الامام أحمد: إنه كذب منكر. ومقامات عبد الرحمن وجهادُه ونفقاتُه العظيمة وصدقاتُه تقتضي دخولَه مع المارِّين كالبرق أو كالطرف أو كأجاويد الخيل، ولا يَدَعُه يدخلها زحفًا.

---

(١) برقم (١٨٢٧).

(٢) برقم (١٣٢٩) بنحوه، وقال: حديث حسن غريب.

فصل

ص٣١١
جعل الله الغنىٰ والفقر سببًا للطاعة والمعصية

والله سبحانه كما هو خالقُ الخلقِ، فهو خالقُ ما به غناهم وفقرُهم، فخلَقَ الغنىٰ والفقرَ ليبتلي بهما عبادَه أيهم أحسن عملًا، وجعلهما سببًا للطاعة والمعصية والثواب والعقاب، قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنىٰ والفقر، والحلال والحرام، وكلها بلاء»[١].

وقال ابن زيد: «نبلوكم بما تُحبُّون وما تكرهون؛ لننظر كيف شكركم وصبركم فيما تحبون وفيما تكرهون»[٢].

فأخبر سبحانه أن الغنىٰ والفقر مطيَّتا الابتلاء والامتحان.

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧] فأخبر سبحانه أنه يبتلي عبدَه بإكرامه له وتنعيمه له وبسط الرزق عليه، كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه، وأن كليهما ابتلاءٌ منه وامتحان.

ثم أنكر سبحانه علىٰ من زعم أن بسطَ الرزق وتوسعتَه إكرامٌ من الله لعبده، وأن تضييقه عليه إهانةٌ منه له، فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما يقول الإنسان بل قد أبتلي بنعمتي وأُنعم ببلائي.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٥).
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٥).

وإذا تأمَّلتَ ألفاظ الآية وجدتَ هذا المعنىٰ يلوح علىٰ صفحاتها ظاهرًا للمتأمِّل.

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

فأخبر سبحانه أنه زيَّن الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان، كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك، وخلق السماواتِ والأرضَ لهذا الابتلاء أيضًا.

فهذه ثلاثة مواضع في القرآن يخبر فيها سبحانه أنه خلق العالم العُلويَّ والسُّفليَّ وما بينهما، وأجَلَ العالمِ وأجَلَ أهلِه، وأسبابَ معايشهم التي جعلها زينةً للأرض من الذهب والفضة والمساكن والملابس والمراكب والزروع والثمار والحيوان والنساء والبنين وغيرِ ذلك - كلُّ ذلك خلَقَه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقَه أيُّهم أطوَعُ وأرضىٰ له وأحسنُ عملًا.

وهذا هو الحق الذي خلَقَ به وله السماواتِ والأرضَ وما بينهما، وغايته الثواب والعقاب، وفواته وتعطيله هو العبث الذي نزَّه اللهُ نفسَه وأخبر أنه يتعالىٰ عنه، وأن مُلكه الحقَّ وتفرُّدَه بالإلهية وحدَه وبربوبية كلِّ شيءٍ ينفي هذا الظنَّ الباطلَ والحسبانَ الكاذبَ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

والمقصود: أنه سبحانه وتعالىٰ خلق الغنىٰ والفقر مطيَّتين للابتلاء والامتحان، ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به.

كما في «المسند»[1] عنه قال: «**يقول الله تعالىٰ: إنَّا أنزلنا المالَ لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو كان لابنِ آدمَ وادٍ من مال لابتغىٰ إليه ثانيًا، ولو كان له ثانٍ لابتغىٰ له ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب**» فأخبر سبحانه أنه أنزل المال لِيُستعان به علىٰ إقامة حقِّه بالصلاة، وإقامة حقِّ عباده بالزكاة، لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام.

فإذا زاد المالُ عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين، فات الغرضُ والحكمةُ التي أُنزل لها وكان التراب أولىٰ به، فرجع هو والجوف الذي امتلأ بمحبته وجمعه إلىٰ التراب الذي هو أصلُه، فلم ينتفع صاحبه به، ولا انتفع الجوف الذي امتلأ به بما خُلق له من الإيمان والعلم والحكمة.

فإنه خُلق لأن يكون وِعاءً لمعرفة ربه وخالقه والإيمان به ومحبته وذكره، وأنزل عليه من المال ما يستعين به علىٰ ذلك، فعطَّل جوفَه عمَّا خُلق له وملأه بمحبة المال وجمعه والاستكثار منه، ومع ذلك فلم يمتلئ بل ازداد فقرًا وحرصًا إلىٰ أن امتلأ جوفه بالتراب الذي خُلق منه، فرجع إلىٰ مادته الترابية التي خُلق منها هو وماله، ولم يستكمل مادَّتَه بامتلاء جوفه من العلم والإيمان الذي بهما كماله وفلاحه وسعادته في معاشه ومعاده.

فالمال إن لم ينفع صاحبه ضرَّه ولا بدَّ، وكذلك العلم والمُلك والقدرة كل ذلك إن لم ينفَعْه ضرَّه، فإن هذه الأمور وسائلُ لمقاصدَ يُتوسَّل بها إليها في الخير والشر، فإن

(١) (٥/ ٢١٨- ٢١٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٦٣٩).

عُطِّلت عن التوسل بها إلىٰ المقاصد والغايات المحمودة تُوُسِّل بها إلىٰ أضدادها.

فأربح الناس من جعلها وسائل إلىٰ الله والدار الآخرة، وذلك الذي ينفعه في معاشه ومعاده، وأخسر الناس من توسَّل بها إلىٰ هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة فخسر الدنيا والآخرة، فهذا لم يجعل الوسائل مقاصدَ، ولو جعلها كذلك لكان خاسرًا، لكنه جعلها وسائل إلىٰ ضدِّ ما جُعلت له، فهو بمثابة من توسل بأسباب اللَّذة إلىٰ أعظم الآلام وأدوَمِها.

فالأقسام أربعة لا خامس لها:

أحدها: معطلُ الأسبابَ مُعرِضٌ عنها.

الثاني: مُكبٌّ عليها واقفٌ مع جمعها وتحصيلها.

الثالث: متوصِّل بها إلىٰ ما يضرُّه أو لا ينفعه في معاشه ومعاده.

فهؤلاء الثلاثة في الخسران.

الرابع: متوصل بها إلىٰ ما ينفعه في معاشه ومعاده، وهو الرابح.

قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦].

وقد أشكل فهمُ هذه الآية علىٰ كثير من الناس، حيث فهموا منها أنَّ مَن كان له إرادةٌ

في الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد.

والآية بحمد الله لا إشكال فيها، والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أُحبِط ما ينجو به وبطل لم يبقَ معه ما يُنجيه؛ فإن كان معه إيمانٌ لم يُرِد به الحياةَ الدنيا وزينتها، بل أراد به اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، لم يدخل هذا الإيمانُ في العمل الذي حَبِط وبَطَل، وأنجاه إيمانه من الخلود في النار، وإن دخلها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة.

والإيمان إيمانان: إيمانٌ يمنع من دخول النار، وهو الإيمان الباعث علىٰ أن تكون الأعمال لله يبتغي بها وجهَه وثوابَه، وإيمانٌ يمنع الخلود في النار، فإن كان مع المُرائي شيء منه، وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكمُ نظائرِها من آيات الوعيد، والله الموفق.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورىٰ: ٢٠].

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

فهذه ثلاثة مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضًا، ويُصدِّق بعضها بعضًا، وتجتمع علىٰ معنىً واحد، وهو أن من كانت الدنيا مرادَه، ولها يعمل، وهي غاية كَدْحِهِ، لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن كانت الآخرة مرادَه، ولها عملُه، وهي غايةُ سعيه، فهي له.

ص٣٢٤
جعل الله الغنىٰ والفقر ابتلاء للعباد

فصل

والمقصود: أنه سبحانه جعل الغنىٰ والفقر ابتلاءً وامتحانًا للشكر والصبر والصدق والكذب والإخلاص والشرك، قال تعالىٰ: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

فجعل الدنيا عرضًا عاجلًا ومتاع غرور، وجعل الآخرة دار جزاء وثواب، وحفَّ الدنيا بالشهوات وزيَّنها بها، كما قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد: ٢٠].

وفي «جامع الترمذي»[(١)] من حديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لو كانت الدنيا تَزِن عند الله جناحَ بعوضةٍ ما سقىٰ كافرًا منها شربة ماء»** قال الترمذي: حديث صحيح.

وفي «صحيح مسلم»[(٢)] من حديث المُستَورِد بن شدَّاد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول

(١) برقم (٢٣٢٠).
(٢) برقم (٢٨٥٨).

الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا مِثلُ ما يجعل أحدُكم إصبَعه في اليمِّ، فلينظُرْ بماذا يرجع**».

وفي «الترمذي»[1] أيضا من حديثه قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على السَّخْلة الميتة، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أترَون هذه هانَتْ على أهلها حتى ألقوها؟**» قالوا: ومن هوانها ألقَوها يا رسول الله. قال: «**فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها**».

❊❊❊❊❊

فصل

ص٣٣٦ الصبر والشكر مطيتان للإيمان

وإذا عُرف أن الغِنى والفقر والبلاء والعافية فتنةٌ وابتلاءٌ من الله لعبده يمتحن بها صبره وشكره، عُلم أن الصبر والشكر مطيتان للإيمان لا يُحمل إلا عليهما، ولا بد لكل مؤمن منهما، وكلٌّ منهما في موضعه أفضل، فالصبر في مواطن الصبر أفضل، والشكر في مواضع الشكر أفضل.

هذا إن صحَّ مفارقةُ كلٍّ واحدٍ منهما للآخر. وأما إذا كان الصبرُ جزءَ مسمَّى الشكر، والشكر جزء مسمى الصبر، وكلٌّ منهما حقيقة مركبة من الأمرين معًا، كما تقدَّم بيانه، فالتفضيل بينهما لا يصحُّ إلا إذا جُرِّد أحدُهما عن الآخر، وذلك فرض ذهني يُقدِّره الذهنُ لا يوجد في الخارج.

---

(١) برقم (٢٣٢١) وحسنه، وأخرجه أيضًا ابن ماجه (٤١١١). وأخرجه مسلم (٢٩٥٧) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بنحوه.

ولكن يصحُّ علىٰ وجهٍ، وهو أن العبد قد يغلب صبرُه علىٰ شكره الذي هو قدرٌ زائد علىٰ مجرَّد الصبر من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فلا يبقىٰ فيه اتساع لغير صبر النفس علىٰ ما هو فيه لقوة الوارد وضيق المحل، فتنصرف قواه كلُّها إلىٰ كفِّ النفس وحبسها لله، وقد يغلب شكره بالأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة علىٰ قوَّة كفِّه لنفسه وحبسها لله، فتكون قوة إرادته وعمله أقوىٰ من قوة امتناعه وحبس نفسه.

واعتَبِرْ هذا بشخصين:

أحدهما حاكم علىٰ نفسه، متمِّكن من حبسها عن الشهوات، قليل التشكي للمصيبات، وذلك جلُّ عمله.

وآخر كثير الإعطاء لفعل الخير القاصر والمتعدي، سمحُ النفسِ ببذل المعروف والبرِّ، ضعيف النفس عن قوة الصبر.

فللنفس قوتان: قوة الصبر والكف وإمساك النفس، وقوة البذل وفعل الخير والإقدام علىٰ فعل ما تكمل به. وكمالها باجتماع هاتين القوتين فيها.

والناس في ذلك أربع طبقات: فأعلاهم من اجتمعت له القوتان، وأسفلهم من عَدِم القوتين، ومنهم من قوةُ صبره أكمل من قوة فعله وبذله، ومنهم من هو بعكس ذلك.

فإذا فُضِّل الشكر علىٰ الصبر؛ فإما أن يكون باعتبار ترجيح مقام علىٰ مقام، وإما أن يكون باعتبار تجريد كلٍّ من الأمرين عن الآخر وقطع النظر عن اعتباره.

وتمام إيضاح هذا بمسألة الغني الشاكر والفقير الصابر، فلنذكر لها بابًا يخصُّها ويكشف عن الصواب فيها، والله أعلم.

ص٣٣٨

الباب الثاني والعشرون

في اختلاف الناس في الغني الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل؟ وما هو الصواب في ذلك؟

هذه مسألة كثر فيها النزاع بين الفقراء والأغنياء، واحتجت كل طائفة على الأخرى بما لم يمكنها دفعُه من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار، ولذلك يظهر للمتأمل تكافؤ الطائفتين، فإن كلًّا منهما أَدْلت بحجج لا تُدفع، والحق لا يعارِضُ بعضُه بعضًا، بل يجب اتباعُ موجَبِ الدليل أين كان.

وقد أكثر الناس الكلام في المسألة من الجانبين، وصنَّفوا فيها من الطرفين، وتكلَّم فيها الفقهاء والفقراء والأغنياء والصوفية وأهل الحديث والتفسير؛ لشمول معناها وحقيقتها للناس كلهم.

وحكوا عن الإمام أحمد فيها روايتين ذكرهما أبو الحسين في كتاب «التمام»[1] فقال: «مسألةٌ: الفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر في أصح الروايتين.

وفيه رواية ثانية: الغني الشاكر أفضل. وبها قال جماعة منهم ابنُ قتيبة.

وجه الأولى، اختارها أبو اسحاق بن شاقِلا والوالدُ السعيد، قوله تعالى: ﴿ ٤٦١

(١) «التمام لِما صحَّ في الروايتين والثلاث والأربع عن الإمام» لأبي الحسين ابن أبي يعلى (٢/ ٣٠٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥] قال محمد بن علي بن الحسين: ﴿ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ الجنة ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ قال: على الفقر في الدنيا(١).

وروى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**اللهم أحْيِني مسكينًا، وأمِتْني مسكينًا، واحشُرْني في زمرة المساكين يوم القيامة**» فقالت عائشة: ولِمَ يا رسول الله؟ قال: «**إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفًا، يا عائشة لا ترُدِّي المسكين ولو بشق تمرة، يا عائشة أحِبِّي المساكين وقرِّبيهم فإن الله يُقرِّبك يوم القيامة**»(٢).

قلت: لا حجة له في واحدة من الحجتين:

- أما الآية فإن الصبر فيها يتناول صبر الشاكر على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وصبرَه عن معصيته، وصبرَ المبتلى بالفقر وغيرِه على بلائه. ولو كان المرادُ بها الصبر على الفقر وحده لم يدلَّ على رجحانه على الشكر، فإن القرآن كما دلَّ على جزاء الصابرين دلَّ على جزاء الشاكرين أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

بل قد أخبر أن رضاه في الشكر، ورضاه أكبر من جزائه بالجنات وما فيها، وإذا جزى الله الصابرين الغرفة بما صبروا لم يدلَّ ذلك على أنه لا يجزي الشاكرين الغرفة بما شكروا.

- وأما الحديث فلا حجة فيه لوجهين:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٤٧).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٥٢)، وقال: «حديث غريب».

أحدهما: أنه لا يُحتجُّ بإسناده، فإنه من حديث ثابت بن محمد الكوفي عن الحارث بن النعمان، والحارث هذا لم يحتج به أصحاب الصحيح، بل قال فيه البخاري: منكر الحديث[١]. ولذلك لم يصحح الترمذي حديثه هذا ولا حسَّنه ولا سكت عنه، بل حكم بغرابته.

الجواب الثاني: أن الحديث لو صحَّ لم يدلَّ علىٰ مطلوبهم، فإن المسكنة التي يحبها الله من عبده ليست فقر المال، بل مسكنة القلب وهي انكساره وذُلُّه وخشوعه وتواضعه لله، وهذه المسكنة لا تُنافي الغِنىٰ ولا يُشترط لها الفقر، فإن انكسار القلب لله ومسكنتَه لعظمته وجلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته أفضلُ وأعلىٰ من مسكنة عدم المال، كما أن صبر الواجد عن معاصي الله طوعًا واختيارًا وخشيةً من الله ومحبةً له أعلىٰ من صبر الفقير العاجز.

وقد آتىٰ الله جماعةً من أنبيائه ورسله الغنىٰ والملك، ولم يخرجهم ذلك عن المسكنة لله.

قال أبو الحسين[٢]: روىٰ أبو بَرْزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن فقراء المسلمين لَيَدخلون الجنةَ قبل أغنيائهم بمقدار أربعين خريفًا، حتىٰ يتمنىٰ أغنياءُ المسلمين يومَ القيامة أنهم كانوا فقراء في الدنيا**»[٣].

---

(١) «الضعفاء الصغير» (ص ٢٨).

(٢) في «التمام» (٢/ ٣٠٣).

(٣) أخرجه الرُّوياني في «مسنده» رقم (٧٧٠)، وفيه نفيع بن الحارث وهو متروك. انظر: «الكامل» لابن عدي (٧/ ٥٩- ٦١).

قلت: هذا الحديث ثابت عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من رواية جماعة من الصحابة منهم: أبو هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر بن عبد الله، ويُروىٰ عن أبي سعيد وأنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ[١].

ولا يدلُّ ذلك علىٰ علو درجتهم إذا دخلوا الجنة قبل الأغنياء، بل إنما يدل علىٰ السبق لعَدَم ما يحاسَبون عليه، ولا ريب أن وليَّ الأمر العادل يتأخر دخولُه للحساب وكذلك الغني الشاكر، ولا يلزمهم مِن تأخُّر دخولهما نزولُ درجتهما عن درجة الفقير كما تقدم.

وأما تمني الأغنياء أنهم كانوا فقراء، فإن صحَّت هذه اللفظة لم تدلَّ علىٰ انحطاط درجتهم، كما يتمنىٰ القاضي العادل في بعض المواطن يومَ القيامة أنه لم يقضِ بين اثنين في تمرةٍ لِما يرىٰ من شدة الأمر؛ فمنزلة الفقر والخمول منزلة السلامة، ومنزلة الغنىٰ والولاية منزلة الغنيمة أو العطب.

وفي «سنن أبي داود»[٢] من حديث الليث، عن أبي الزبير، عن يحيىٰ بن جعدة، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال: «**جُهد المُقِلِّ، وابدأ بمن تَعول**».

وفي «المسند» و«صحيح ابن حبان»[٣] من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال قلت: يا

(١) سبق تخريجها ما عدا حديث جابر وحديث أبي سعيد الخدري، وسيأتي تخريجهما عند إيراد المؤلف لهما قريبًا.
(٢) برقم (١٦٧٧)، وصححه ابن خزيمة (٢٤٤٤)، وابن حبان (٣٣٤٦).
(٣) أحمد (٥/ ١٧٨)، وابن حبان (٣٦١).

رسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال: «**جُهد مِن مُقِلٍّ**».

وفي «سنن النسائي»[١] من حديث علي الأزدي، عن عُبَيد بن عُمَير، عن عبد الله ابن حُبشي أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان لا شك فيه، وجهادٌ لا غلول فيه، وحجة مبرورة**» قيل: فأي الصلاة أفضل؟ قال: «**طول القيام**» قيل: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «**جُهد من مقل**» قيل: فأي الهجرة أفضل؟ قال: «**مَن هجر ما حرَّم اللهُ عليه**» قيل: فأي الجهاد أفضل؟ قال: «**من أُهرِيق دمُه وعُقِر جوادُه**».

وهذه الأحاديث كلُّها تدل على أن صدقةَ جهدِ المُقِلِّ أفضلُ من صدقة كثير المال ببعض ماله الذي لا يتبيَّنُ أثرُ نقصانه عليه وإن كان كثيرًا؛ لأن الأعمال تتفاضل عند الله بتفاضل ما في القلوب لا بكثرتها وصُوَرها، بل بقوة الداعي وصدق الفاعل وإخلاصه وإيثاره اللهَ على نفسه.

فأين صدقةُ مَن آثر اللهَ على نفسه برغيفٍ هو قوتُه إلى صدقةِ مَن أخرج مائة ألفِ درهمٍ مِن بعض ماله غيضًا من فيض! فرغيف هذا ودرهمه في الميزان أثقل من مائة ألف هذا! والله المستعان.

❊❊❊❊❊

فصل

تفصيل شيخ الإسلام في المسألة

وقد سئل شيخ الاسلام ابن تيمية عن هذه المسألة فقال[٢]: قد تنازع كثير من

(١) برقم (٢٥٢٦)، وأخرجه أيضًا أبو داود (١٤٤٩)، وقوَّاه ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٥٢).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١١٩-١٢١).

المتأخرين في الغني الشاكر والفقير الصابر؛ أيهما أفضل؟ فرجَّح هذا طائفةٌ من العلماء والعُبَّاد، ورجَّح هذا طائفة من العلماء والعباد، وحُكي في ذلك عن الإمام أحمد روايتان.

وأما الصحابة والتابعون فلم ينقل عن أحدٍ منهم تفضيل أحد الصِّنفين علىٰ الآخر.

وقد قالت طائفة ثالثة: ليس لأحدهما علىٰ الآخر فضيلة إلا بالتقوىٰ، فأيهما كان أعظمَ إيمانًا وتقوىٰ كان أفضل، فإن استويا في ذلك استويا في الفضيلة.

قال: وهذا أصحُّ الأقوال، لأن نصوص الكتاب والسنة إنما تُفضِّل بالإيمان والتقوىٰ، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد كان في الأنبياء والسابقين الأولين من الأغنياء من هو أفضلُ مِن أكثر الفقراء، وكان فيهم من الفقراء من هو أفضلُ من أكثر الأغنياء، والكاملون يقومون بالمقامَين فيقومون بالشكر والصبر علىٰ التمام كحال نبينا ﷺ وحال أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكن قد يكون الفقر لبعض الناس أنفع والغنىٰ لآخرين أنفع، كما تكون الصحة لبعضهم أنفع والمرض لبعضهم أنفع.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن فقراءَ المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياء**»[1] وفي الحديث الآخر لمَّا علَّم الفقراء الذكرَ عقب الصلاة سمع بذلك الأغنياء فقالوا مثل ما قالوا، فذكر ذلك الفقراءُ للنبي ﷺ فقال: «**ذلك فضل الله يؤتيه**

(١) سبق تخريجه.

من يشاء»[١].

فالفقراء يتقدَّمون في دخول الجنة لخفَّة الحساب عليهم، والأغنياء يُؤخَّرون لأجل الحساب، ثم إذا حوسب أحدهم فإن كانت حسناتُه أعظمَ من حسنات الفقير كانت درجتُه في الجنة فوقَه وإن تأخَّر في الدخول.

كما أن السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، ومنهم عُكاشة بن مِحْصَن[٢] قد يدخل الجنةَ بحسابٍ مَن يكون أفضلَ من أحدهم في الدرجات، لكن أولئك استراحوا من تعب الحساب.

(١) سبق تخريجه.
(٢) كما في البخاري (٥٨١١)، ومسلم (٢١٦).

ص٣٥٠

الباب الثالث والعشرون

في ذكر ما احتجت به الفقراء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

قالت الفقراء: لم يذكر الله سبحانه الغنىٰ والمال في القرآن إلا علىٰ أحد وجوه:

الأول: علىٰ وجه الذم، كقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ⁽٦⁾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧] وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورىٰ: ٢٧].

الوجه الثاني: أن يذكره علىٰ وجه الابتلاء والامتحان، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

الوجه الثالث: إخباره سبحانه وتعالىٰ أن الأموال والأولاد لا تُقرِّب إليه شيئًا، وإنما يُقرِّب إليه الإيمانُ والعمل الصالح، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

الوجه الرابع: إخباره أن الدنيا والغنىٰ والمال إنما جعلها متعةً لمن لا نصيب له في الآخرة، وأن الآخرة جعلها للمتقين، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

الوجه الخامس: أنه سبحانه لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة إلا بالذم، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥] وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦].

الوجه السادس: أنه سبحانه ذم محب المال، فقال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:١٩-٢٠] فذمَّهم بحبِّ المال وعيَّرهم به.

الوجه السابع: أنه سبحانه ذم متمنّي الدنيا والغنىٰ والسعة فيها ورأوا ذلك عطاء عظيمًا، ومدح من أنكر عليهم وخالفهم، فقال تعالىٰ عن أغنىٰ أهل زمانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص:٧٩-٨٠].

الوجه الثامن: أنه سبحانه أنكر علىٰ من ظنَّ أن التفضيل يكون بالمال الذي يحتاج إليه لإقامة الملك، فكيف بما هو زيادة وفضلة! فقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] فرد الله سبحانه قولهم، وأخبر أن الفضل ليس بالمال كما توهَّموه، وأن الفضل بالعلم لا بالمال.

الوجه التاسع: أنه سبحانه أخبر أن التكاثر في جمع المال وغيره ألهىٰ الناس وشَغَلهم عن الآخرة والاستعداد لها، وتوعَّدهم علىٰ ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر:١-٥].

فأخبر سبحانه أن التكاثر شغَلَ أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتىٰ

حضرهم الموت، فزاروا المقابر، ولم يُفيقوا من رقدة من ألهاه التكاثر.

وجعل الغاية زيارةَ المقابر دون الموت إيذانًا بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدةً ثم يظعنون عنها كما كانوا في الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار.

ولم يعيِّن سبحانه المتكاثَر، بل ترك ذكره إما لأنَّ المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثَر به، كما يُقال: شغلك اللعب واللهو، ولم يذكر ما يلعب ويلهو به؛ وإما إرادةَ الإطلاق، وهو كل ما يُكاثِر به العبدُ غيرَه من أسباب الدنيا، من مالٍ، أو جاهٍ، أو عبيدٍ أو إماءٍ، أو بناءٍ أو غراسٍ، أو علمٍ لا يبتغي به وجهَ الله، أو عملٍ لا يقرِّبُه إلىٰ الله، فكلُّ هذا من التكاثر المُلهي عن الله والدار الآخرة.

وفي «صحيح مسلم»[1] من حديث عبد الله بن الشخير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: انتهيت إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما تصدَّقْتَ فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لَبِستَ فأبليت!**».

ص٣٧٢ هوان الدنيا وسقوط قدرها عند الله تعالىٰ

فصل

فلنرجع إلىٰ تمام المناظرة.

قالوا: فالله تعالىٰ حمىٰ أولياءه عن الدنيا، وصانهم عنها، ورَغِب بهم عنها تكريمًا

(١) برقم (٢٩٥٨).

لهم، وتطهيرًا عن أدناسها، ورفعةً عن دناءتها، وذمَّها لهم، وأخبرهم بهوانها عليه وسقوط قدرها عنده، وأعلمهم أن بسطها فتنةٌ وأنه سببُ الطغيانِ والفسادِ في الأرض وإلهاءِ التكاثر بها عن طلب الدار الآخرة، وأنها متاع الغرور، وذَمَّ محبيها ومؤثريها.

وأخبر أن من أرادها أو أراد زينتها وحرثها فليس له في الآخرة من نصيب، وأخبر أن بسطها فتنةٌ وابتلاء لا كرامة ومحبة، وأن إمدادَ أهلها بها ليس مسارعةً لهم في الخيرات، وأنها لا تُقرِّب إليه ولا تُزلف لديه، وأنه لولا تتابع الناس في الكفر لأعطىٰ الكفار منها فوق مُناهم، ووسَّعها عليهم أعظمَ التوسعةِ، بحيث يجعل سقوفَ بيوتهم وأبوابَهم ومَعارِجَهم وسُررَهم كلَّها من فضة، وأخبر أنه زيَّنها لأعدائه ولضعفاء العقول الذين لا نصيب لهم في الآخرة، ونهىٰ رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مَدِّ عينيه إليها والىٰ ما مَتَّع به أهلها، وذمَّ من أذهب طيِّباتِه فيها واستمتع بها[1].

وقال لنبيه: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣] وفي هذا تعزية لِما منعه أولياءَه من التمتع بالدنيا وكثرة الأكل فيها، وتأديبًا لمن بسط له فيها ألا يطغىٰ فيها ولا يعطي نفسه شهواتِها ولا يتمتَّع بها.

قالوا: وقد عرضها سبحانه وعرض مفاتيحَ كنوزِها علىٰ أحب الخلق إليه وأكرمهم عليه عبده ورسوله، فلم يُرِدْها ولم يخترها، ولو آثرها وأرادها لكان أشكرَ الخلق بما أخذه منها، ولأنفقه كلَّه في مرضاة الله وسبيله قطعًا، بل اختار التقلُّل منها وصبر علىٰ شدة العيش فيها.

---

(١) في هذه الفقرة أشار المؤلف إلىٰ آيات الشورىٰ (٢٠)، والمؤمنون (٥٥-٥٦)، وسبأ (٣٧)، والزخرف (٣٣-٣٥)، وطه (١٣١)، والأحقاف (٢٠).

وسأل ربه أن يجعل رزقَه ورزقَ أهلِه قوتًا كما في «الصحيحين»[١] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «**اللهمَّ اجعَلْ رزقَ آلِ محمدٍ قوتًا**».

وفيهما[٢] عنه قال: «والذي نفسُ أبي هريرة بيده، ما شَبع نبيُّ الله وأهلُه ثلاثةَ أيام تباعًا من خبز حنطةٍ حتىٰ فارق الدنيا».

وفي «صحيح البخاري»[٣] عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أعلم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأىٰ رغيفًا مرقَّقًا ولا شاةً سَمِيطًا[٤] قطُّ حتىٰ لحق بربه».

وفي «صحيحه»[٥] أيضا عنه قال: «خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير».

وفي «الصحيحين»[٦] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البُرِّ ثلاثَ ليالٍ تباعًا حتىٰ قبض».

وفي «صحيح مسلم»[٧] عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لقد رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يظل اليوم ما يجد دَقَلًا[٨] يملأ بطنه».

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) البخاري (٥٣٧٤)، ومسلم (٢٩٧٦).
(٣) برقم (٥٤٢١).
(٤) قوله: «سميطا» أي: مشوية. «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٤٠٠).
(٥) برقم (٥٤١٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٦) البخاري (٥٤١٦)، ومسلم (٢٩٧٠).
(٧) برقم (٢٩٧٨).
(٨) الدقل: رديء التمر ويابسه. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ١٢٧).

وفي «المسند» و«الترمذي»[1] عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبيت الليالي المتتابعةَ طاويًا[2] وأهلُه لا يجدون عشاء، وكان أكثرُ خبزهم خبز الشعير» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قال الإمام أحمد[3]: حدثنا حسين، حدثنا محمد بن مُطرِّف، عن أبي حازم، عن عروة أنه سمع عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: «كان يمُرُّ بنا هلالٌ وهلالٌ ما يوقد في بيت من بيوت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نار» قُلت: يا خالة، فعلىٰ أيِّ شيءٍ كنتم تعيشون؟ قالت: «علىٰ الأسودين: التمر والماء».

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة أبي الهَيثم بن التَّيِّهان: أنه خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بيته فرأىٰ أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: «**ما أخرجكما؟**» قالا: الجوع. قال: «**أنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما**»[4].

وذكر أحمد[5] من حديث مسروق قال: دخلت علىٰ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فدعت لي بطعام وقالت: ما أشبع من طعامٍ فأشاء أن أبكي إلا بكيت. قال: قُلت لِمَ؟ قالت: «أذكر الحال التي فارق عليها رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدنيا، واللهِ ما شبع في يومٍ مرَّتين من خبز البرِّ حتىٰ قُبض».

---

(١) أحمد (١/ ٢٥٥)، والترمذي (٢٣٦٠)، وأخرجه أيضًا ابن ماجه (٣٣٤٧).
(٢) «طاويًا»: أي خالي البطن، جائعًا لم يأكل. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٣/ ١٤٦).
(٣) في «المسند» (٦/ ٧١)، وأخرجه أيضا البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢).
(٤) أخرجه مسلم (٢٠٣٨).
(٥) في «الزهد» رقم (٩٠٨)، وأخرجه أيضا الترمذي (٢٣٥٦) وصححه.

وفيه[١] عنها: «ما شبع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خبز شعيرٍ يومين متتابعين حتىٰ قُبض» والحديثان صحيحان.

قالوا: ولو كان الغنىٰ مع الشكر أفضلَ من الفقر مع الصبر لاختاره رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ عُرِضت عليه الدنيا، ولأمرَه ربُّه أن يسأله إياه، كما أمره أن يسأله زيادة العلم، ولم يكن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليختار إلا ما اختاره الله له، ولم يكن اللهُ ليختار له إلا الأفضلَ إذ كان أفضلَ خلقِه وأكملَهم.

قالوا: وقد أخبر النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن خيرَ الرزق ما كان بقدر كفاية العبد، فلا يُعْوِزه ما يضرُّه، ولا يَفضُل عنه ما يُطغيه ويُلهيه.

قال الإمام أحمد[٢]: حدثنا ابنُ مهدي، حدثنا همَّام، عن قَتادةَ، عن خُلَيد العصري، عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما طلعَتْ شمسٌ قط إلا بُعث بجنبتَيها ملكان يناديان يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلمُّوا إلىٰ ربكم، فإن ما قلَّ وكفىٰ خير مما كثُر وألهىٰ. ولا آبت شمسٌ قط إلا بُعث بجنبتَيها ملكان يناديان يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعطِ منفقًا خَلَفًا، وأعطِ ممسكًا تلفًا**».

قال أحمد[٣]: وحدثنا وكيع، حدثنا أسامة بن زيد، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي لَبِيبة، عن سعد بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خيرُ الرزق ما يكفي، وخير الذكر الخفي**».

---

(١) في «المسند» (٦/ ٩٨)، وأخرجه أيضا مسلم (٢٩٧٠/ ٢٢).
(٢) في «المسند» (٥/ ١٩٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٤٣).
(٣) في «المسند» (١/ ١٧٢)، وصححه ابن حبان (٨٠٩).

وتأمَّلْ جمعه في هذا الحديث بين رزق القلب والبدن: رزق الدنيا والآخرة، وإخبارَه أن خير الرزقين ما لم يتجاوز الحدَّ، فيكفي من الذكر إخفاؤه، فإن زاد على الإخفاء خيف على صاحبه الرياءُ والتكبر به على الغافلين، وكذلك رزق البدن إذا زاد على الكفاية خيف على صاحبه الطغيان والتكاثر.

قالوا: وقلَّ أن يقع إعطاء الدنيا وتوسعتُها إلا استدراجًا من الله، لا إكرامًا ومحبة لمن أعطاه.

قال الإمام أحمد[1]: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رِشْدِين بن سعد، عن حَرْمَلَة بن عِمران التُّجِيبي، عن عُقبةَ بن مُسْلِم، عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا رأيتَ الله يُعطي العبدَ من الدنيا على معاصيه ما يحبُّ فإنما هو استدراج**» ثم تلا قولَه تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ الآية [الأنعام: ٤٤].

قالوا: ولو لم يكن في التقلُّل إلا خفة الحساب لكفى به فضلًا على الغنى.

قالوا: وقد شهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه أنهم يوم فقرهم وفاقتهم خيرٌ منهم يوم غناهم وبسط الدنيا عليهم.

قال الإمام أحمد[2]: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبو الأشهب، عن الحسن قال: قال نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أهلَ الصُّفَّة كيف أنتم؟**» قالوا: نحن بخير. قال: «**أنتم اليومَ خيرٌ**

(١) في «المسند» (٤/ ١٤٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤١٣).
(٢) لعله فيما لم يُطبع من «الزهد» لأحمد. وقد روي موضع الشاهد منه عن الحسن البصري من طريق آخر عند الحاكم (٤/ ٥٤٩). والحديث مرسل.

أم يومَ تغدو على أحدكم جَفْنةٌ وتروح أخرى، ويغدو في حُلَّة ويروح في أخرى، وتسترون بيوتكم بمثل أستار الكعبة؟» قالوا: يا نبي الله نحن يومئذٍ خيرٌ؛ يُعطينا ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فنشكر. قال: «بل أنتم اليوم خير».

فهذا صريح في أنهم في وقت صبرهم على فقرهم خيرٌ منهم في وقت غناهم مع الشكر.

قالوا: ولو لم يكن في الغنى والمال إلا أنه فتنة، وقلَّ من سلم من إصابتها له وتأثيرها في دينه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن: ١٥].

قالوا: وحق الغنى أعظم من أن يقوم العبد بشكره.

وقد روى الترمذي في «جامعه»[١] من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ليس لابن آدم حقٌّ في سوى هذه الخصال: بيتٍ يسكنه، وثوبٍ يواري عورته، وجِلْفِ الخبزِ[٢] والماء» قال: هذا حديث حسن صحيح.

وفي «صحيح مسلم»[٣] عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا بنَ آدم، إنك أن تَبْذُلَ الفضلَ خيرٌ لك، وأن تُمسكَه شرٌّ لك، ولا تلامُ على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العُليا خيرٌ من اليد السفلى».

---

(١) برقم (٢٣٤١).
(٢) «جلْف الخبز»: الخبز وحده، لا إدامَ معه. انظر: «النهاية» (١/ ٢٨٧).
(٣) برقم (١٠٣٦).

وفي «صحيحه»(١) أيضًا من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن في سفر مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ جاء رجل على راحلةٍ له فجعل يضرب يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن كان معه فضلٌ من ظهرٍ فليَعُدْ به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضلٌ من زادٍ فليَعُدْ به على من لا زاد له**» قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى ظننَّا أنه لا حقَّ لأحدٍ منا في فضل.

قالوا: فهذا موضع النظر في تفضيل الغني الشاكر الذي يبذلُ الفضلَ كلَّه، وأما غنيٌّ يتمتَّع بأنواع الفضل ويشكر بالواجب وبعض المستحب فكيف يَفْضُل على فقيرٍ صابرٍ راضٍ عن الله في فقره!

قالوا: وقد أقسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه وهم أئمة الشاكرين، أنه لا يخاف عليهم الفقر، وإنما يخاف عليهم الغنى.

ففي «الصحيحين»(٢) من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان شهد بدرًا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث أبا عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صالح أهل البحرين، وأمَّر عليهم العلاءَ بنَ الحضرمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقَدِم أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمال من البحرين، فسمعَتِ الأنصارُ بقدوم أبي عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوافَوا صلاة الفجر مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انصرف، فتعرَّضوا له، فتبسَّم رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رآهم، ثم قال: «**أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟**» فقالوا: أجل يا رسول الله.

---

(١) برقم (١٧٢٨).

(٢) البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

قال: «**أبشروا وأمِّلُوا ما يَسُرُّكم، فواللهِ ما الفقرُ أخشىٰ عليكم، ولكني أخشىٰ أن تُبسط الدنيا عليكم كما بُسطت علىٰ من كان قبلكم، فتَنافسوها كما تنافسوها، فتُهلِكَكم كما أهلكَتْهم**».

وقد بشَّر رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفقراء الصابرين بما لم يبشِّرْ به الأغنياء.

ففي الترمذي[1] من حديث فَضالة بن عُبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا صلَّىٰ بالناس يخرُّ رجال من قامتهم في الصلاة مِن الخَصاصة، وهم أصحاب الصفَّة، حتىٰ يقول الأعراب: هؤلاء مجانين! فإذا صلَّىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انصرف إليهم وقال: «**لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقةً وحاجة**» قال فضالة: وأنا يومئذ مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبشَّرهم بسبقهم إلىٰ الجنة، وقد اختلفت الروايات في مدة هذا السبق.

ففي «صحيح مسلم»[2] عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه جاء ثلاثةُ نفرٍ فقالوا: يا أبا محمد، واللهِ ما نقدر علىٰ شيءٍ: لا نفقةٍ ولا دابةٍ ولا متاع. فقال لهم: ما شئتم، إن شئتم رفعتم إلينا فأعطيناكم ما يسرُّكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم فإني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفًا**» قالوا: نصبر، لا نسأل شيئًا.

وقال الإمام أحمد[3]: حدثنا عفَّان، حدثنا حماد بن سَلَمة، عن محمد بن عمروٍ،

(١) برقم (٢٣٦٨) وصححه.
(٢) برقم (٢٩٧٩).
(٣) في «المسند» (٢/ ٣٤٣)، وأخرجه الترمذي (٢٣٥٤) صححه.

عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يدخل فقراءُ المسلمين الجنةَ قبل أغنيائهم بنصف يوم، وهو خمسمائة عام**» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي الترمذي[1] أيضًا من حديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فقراء المهاجرين يدخلون الجنَّة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة**» وهو حديث حسن.

وفيه[2] أيضًا من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفًا**» وهو حديث حسن.

وهذا موافق لحديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ولحديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي في الترمذي أيضًا[3]: «**إن المساكين يدخلون قبل الأغنياء بأربعين خريفًا**».

فهؤلاء ثلاثة: جابر وأنس وعبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وقد اتفقوا علىٰ الأربعين.

وهذا أبو هريرة وأبو سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قد اتفقا علىٰ التقدير بخمسمائة سنة.

ولا تعارض بين هذه الأحاديث؛ إذ السبق والتأخُّر درجاتٌ بحسب الفقر والغنىٰ،

---

(١) برقم (٢٣٥١) وقال: حديث حسن غريب. وأخرجه أيضًا أحمد (٣/ ٦٣)، وأبو داود (٣٦٦٦)، وابنُ ماجه (٤١٢٣).
(٢) برقم (٢٣٥٥) وقال: حديث حسن.
(٣) برقم (٢٣٥٢) وقال: حديث غريب.

فمنهم من يسبق بأربعين، ومنهم من يسبق بخمسمائة، ولا يتقيد السبق بهذا المقدار بل يزيد عليه وينقص.

وقد روىٰ أبو داود في «سننه»[(١)] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ أول الأمة دخولًا إلىٰ الجنة أبو بكر الصديق** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

ومعلوم أن المدة التي بينه وبين إخوانه من فقراء المهاجرين لا تطول، وأنها أطولُ مدةً بين دخوله وبين دخول آخر من يدخل الجنة.

قالوا: ويكفي في فضل الفقير أن عامّة أهل الجنة الفقراء، وعامة أهل النار الأغنياء.

قال الإمام أحمد[(٢)]: حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، حدثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن السائب بن مالك، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اطَّلَعْتُ في الجنة فرأيتُ أكثرَ أهلِها الفقراء، واطَّلَعْتُ في النار فرأيتُ أكثرَ أهلها الأغنياء والنساء**».

وفي «صحيح البخاري»[(٣)] عن أبي رجاء قال: جاء عمران بن حُصَين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلىٰ امرأته من عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: حدِّثْنا ما سمعتَ من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقال: إنه ليس حينَ حديثٍ[(٤)]. فلم تَدَعْه - أو قال: فأغضبته - فقال:

---

(١) برقم (٤٦٥٢)، وصححه الحاكم (٣/ ٧٣).

(٢) في «المسند» (٢/ ١٧٣)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» رقم (٢٨٠٠).

(٣) برقم (٣٢٤١)، وليس فيه قصة عمران مع امرأته، بل هو في «جامع معمر» (١١/ ٣٠٥)، و«مسند الإمام أحمد» (٤/ ٤٣٧).

(٤) «ليس حين حديث» أي: ليس هذا وقتَ ذكر الحديث.

سمعت رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**نظرتُ في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، ونظرتُ في النار فرأيت أكثر أهلها النساء**».

قالوا: والذي يَفْصِل بيننا في هذه المسألة ويشفي العليل: أن الفقر يوفِّر أجرَ صاحبه ومنزلته عند الله، والغنيُّ ولو شكر، فإنَّ ما ناله في الدنيا بغناه يُحسَب عليه من ثوابه يوم القيامة وإن تناوله بأحلِّ وجهٍ؛ فقليل الفضل في الدنيا نقص من كثير الآخرة.

وفي «صحيح مسلم»[(١)] من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**ما مِن غازيةٍ تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمةَ إلا تعجَّلُوا ثُلُثَي أجرَهم من الآخرة، ويبقىٰ لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمةً تمَّ لهم أجرُهم**».

وفي «الصحيحين»[(٢)] عن خبَّاب بن الأَرَتِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «هاجَرْنا مع رسولِ الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نلتمس وجهَ الله، فوقع أجرنا علىٰ الله، فمنَّا مَن مات لم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قُتل يومَ أحدٍ وترك نَمِرةً، فكنَّا إذا غطَّينا بها رأسَه بدَتْ رجلاه، وإذا غطَّينا رجلَيه بدا رأسُه، فأمرَنا رسولُ الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن نغطِّيَ رأسَه ونجعلَ علىٰ رجليه شيئًا من الإذْخِر، ومنَّا من أَيْنَعَتْ له ثمرتُه فهو يَهْدِبُها».

وفي «الصحيحين»[(٣)] عن قيس بن أبي حازم قال: دخلنا علىٰ خباب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

(١) برقم (١٩٠٦).
(٢) البخاري (١٢٧٦)، ومسلم (٩٤٠).
(٣) البخاري (٥٦٧٢)، ومسلم (٢٦٨١١) مختصرا.

نعوده وقد اكتوىٰ سبع كيَّات، فقال: «إن أصحابنا الذين سَلَفُوا مَضَوا ولم تَنقُصْهم الدنيا» وذكر الحديث.

وقال سعيد بن منصور[1]: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «ما يصيبُ عبدٌ من الدنيا شيئًا إلا نقص من درجاته عند الله، وان كان عليه كريمًا».

وفي «صحيح البخاري»[2] عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: أوتي عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بطعام وكان صائمًا، فقال: «قُتل مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو خير مني، وكُفِّن في بُردةٍ إن غُطّي رأسُه بدت رجلاه، وإن غُطِّي رجلاه بدا رأسُه، وقُتل حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو خير مني، فلم يوجَد له كفن إلا بردة، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسِط - أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا - وقد خشيتُ أن تكون عُجِّلَت لنا طيباتُنا في حياتنا الدنيا» ثم جعل يبكي حتىٰ ترك الطعام.

قال أبو سعيد ابنُ الأعرابي: وليس عبدُ الرحمن بن عوفٍ وخبَّابٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا ذلك دون غيرهما، لقد قاله الأكابرُ من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكرهوا ما فتح الله عليهم من الدنيا، وأشفقوا منه، وعلموا أن ما اختاره الله لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أفضل، وأن ما أُخِّروا له كان أنقص، منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأبو عبيدة، وعمار بن ياسر، وسلمان، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وأبو هاشم بن عتبة، وجماعة لم نذكرهم للاختصار.

---

(١) من طريقه أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٦٧٦).
(٢) برقم (١٢٧٤، ١٢٧٥).

قالوا: وهاهنا قضيتان صادقتان بهما يتبين الفضل:

إحداهما: أن الأقلِّين هم الأكثرون يوم القيامة.

والثانية: أن الأكثرين هم الأقلُّون.

أما الأولى: فقد تقدم الدليل عليها بما فيه الكفاية.

وأما الثانية: ففي «الصحيحين»[1] من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجت ليلة من الليالي، فإذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمشي وحده ليس معه إنسان.، قال: فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحدٌ. قال: فجعلت أمشي في ظل القمر، فالتفت فرآني فقال: «**من هذا؟**» قلت: أبو ذر جعلني الله فداك. قال: «**يا أبا ذر! تعالَ**» فمشيت معه ساعة فقال: «**إن الأكثرين هم المُقلُّون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيرًا فنفخ فيه يمينَه وشمالَه وبين يديه ووراءَه، وعمل فيه خيرًا**» وذكر الحديث.

قالوا: ولو كان الغنىٰ أفضلَ من الفقر لما حضَّ الله رسوله علىٰ الزهد في الدنيا والإعراض عنها، وذَمَّ الحرصَ عليها والرغبةَ فيها، بل كان ينبغي أن يحضَّ عليها وعلىٰ اكتسابها والإكثار منها، كما حضَّ علىٰ اكتساب الفضائل التي بها كمالُ العبد من العلم والعمل، فلما حضَّ علىٰ الزهد فيها والتقلُّلِ دلَّ علىٰ أن الزاهدين فيها المُتقلِّلين منها أفضلُ الطائفتين.

وقد أخبر أنها لو ساوَتْ عندَ الله جناحَ بعوضةٍ ما سقىٰ كافرًا منها شَربة ماء[2]،

---

(١) البخاري (٦٤٤٣)، ومسلم (٩٤).

(٢) سبق تخريجه.

وأنها أهوَنُ علىٰ الله من السخلة الميتة علىٰ أهلها[١]، وأنَّ مثلها في الآخرة كمثل ما يَعْلَق بأصبع مَن أدخل أصبعه في البحر[٢]، وأنها ملعونة ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم[٣]، وأنها سجن المؤمنين وجنة الكافر[٤].

وأمر العبدَ أن يكون فيها كأنَّه غريبٌ أو عابِرُ سبيل، وأن يعُدَّ نفسه من أهل القبور، وإذا أصبح فلا ينتظر المساء وإذا أمسىٰ فلا ينتظر الصباح[٥].

ونهىٰ عن اتخاذ ما يرغِّب فيها.

ولعن عبد الدينار وعبد الدرهم، ودعا عليه بالتَّعَس والانتكاس وعدم إقالة العثرة بالانتقاش[٦].

وأخبر أنها خَضِرة حُلْوة، أي: تأخذ بالعيون بخضرتها وبالقلوب بحلاوتها، وأمر باتِّقائها والحذر منها، كما يُتقىٰ النساء ويُحذَر منهن[٧].

وأخبر أن الحرص عليها وعلىٰ الرياسة والشرف يُفسد الدين، كإفساد الذئبين الضاريين إذا أُرسلا في زريبة غنمٍ أو أشدَّ إفسادًا[٨].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».
(٤) أخرجه مسلم (٢٩٥٦).
(٥) أخرجه البخاري (٦٤١٦).
(٦) أخرجه البخاري (٢٨٨٧).
(٧) أخرجه مسلم (٢٧٤٢).
(٨) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦) وصححه.

وأخبر أنه في الدنيا كراكبٍ استظل تحت شجرة في يومٍ صائفٍ، ثم راح وتركها[١].

وهذه في الحقيقة حال سكَّان الدنيا كلِّهم، ولكن هو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهد هذه الحال وعَمِي عنها بنو الدنيا.

ومرَّ بهم وهم يُعالِجون خُصًّا لهم قد وهىٰ فقال: «**ما أرىٰ الأمرَ إلا أعجلَ من ذلك**»[٢].

وأمر بسِترٍ علىٰ بابه فنُزع، وقال: «**إنه يُذكِّرُني الدنيا**»[٣].

وأعلمَ الناسَ أنه ليس لأحدٍ منهم حقٌّ في سوىٰ بيتٍ يسكنه، وثوب يواري عورته، وقوت يقيم صلبه[٤].

وأخبر أن الميت يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقىٰ عمله[٥].

وأخبر أن للمتخوِّض فيما شاءت نفسُه من مال الله بغير حقٍّ النارَ يوم القيامة[٦].

وأقسم أنه لا يخاف الفقرَ علىٰ أصحابه، وإنما يخاف عليهم الدنيا، وتنافُسَهم

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وصححه الترمذي.
(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٣٦)، والترمذي (٢٣٣٥)، وابن ماجه (٤١٦٠)، وصححه الترمذي.
(٣) أخرجه مسلم (٢١٠٧).
(٤) سبق تخريجه.
(٥) أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠).
(٦) أخرجه البخاري (٣١١٨).

فيها، وإلهاءها لهم[١].

وأخبر أنه ليس لابن آدم من ماله إلا ما أكل فأفنىٰ، أو لبس فأبلىٰ، أو تصدَّق فأمضىٰ[٢].

وأخبر أن حَسْبَ ابنِ آدم من الدنيا لقيماتٌ يُقِمْن صُلبَه، فإن لم يقتصر عليها فثلثُ بطنِه لطعامه، وثلثُه لشرابه، وثلثُه لنَفَسِه[٣].

وفي هذا الحديث الإرشاد إلىٰ صحة القلب والبدن والدين والدنيا.

وأخبر أن غنىٰ العبدِ فيها غنىٰ نفسه لا كثرة عرضه[٤].

وسأل الله أن يجعل رزقه فيها قوتًا[٥].

وغَبَط من كان رزقُه فيها كفافًا بعد أن هُدِي للإسلام[٦].

وأخبر أن من كانت الدنيا همَّه جعل الله فقرَه بين عينيه، وشتَّتَ عليه شملَه، ولم يأته منها إلا ما كتب له[٧].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وصححه الترمذي.
(٤) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).
(٥) سبق تخريجه.
(٦) أخرجه الترمذي (٢٣٤٩) وصححه.
(٧) أخرجه الترمذي (٢٤٦٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٩٤٩).

وعرض عليه ربُّه تعالىٰ أن يجعل له بطحاءَ مكةَ ذهبًا، فقال: «**لا يا ربِّ، ولكن أشبَعُ يومًا وأجوع يومًا، فإذا جعتُ تضرَّعتُ إليك، وإذا شبِعْتُ حمدتك وشكرتك**»(١).

وأعلمهم أن من أصبح منهم آمنًا في سِرْبه، معافًىٰ في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا(٢).

وأخبر أن بذل العبد ما فَضَل عن حاجته خيرٌ له، وإمساكه شرٌّ له، وأنه لا يُلام علىٰ الكفاف(٣).

ونهىٰ أمَّته أن ينظرَ أحدُهم إلىٰ مَن هو فوقه في الدنيا، وأمره أن ينظر إلىٰ من هو دونه فيها(٤).

وأخبر أنه لم يبقَ من الدنيا إلا بلاءٌ وفتنةٌ(٥).

وضرَبَ مثَلَها مثَلَ ما يخرج من ابن آدم عند خلائه، وإن كان أوَّلُه طيِّبًا لذيذًا فهذا آخره(٦).

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) أخرجه مسلم (٢٩٣٦).
(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٩٤)، وابن ماجه (٤٠٣٥)، وصححه ابن حبان (٦٩٠).
(٦) «المسند» (٥/ ١٣٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٨٢).

وأخبر أن عبادَ الله ليسوا بالمتنعمين فيها[١] فإنَّ أمامهم دارَ النعيم، فهم لا يرضون بنعيمهم في الدنيا عوضًا من ذلك النعيم.

وأخبر أن نجاةَ أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلكةَ آخِرِها بالبخل وطول الأمل[٢].

وقال: «**تَعِس عبدُ الدينار، تَعِس عبدُ الدرهم: إن أُعطِي رضي، وإن مُنع سَخِط**»[٣] وهذا تفسير منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبيان لعبوديتها.

وقد عُرضت الدنيا علىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحذافيرها، وتعرَّضت له فدفع في صدرها باليدين، وردَّها علىٰ عقبيها.

ثم عرضت بعده علىٰ أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وتعرَّضت لهم، فمنهم من سلك سبيله ودفعها عنه وهم القليل، ومنهم من استعرضها وقال: ما فيكِ؟ قالت: فيَّ الحلالُ والشبهة والمكروه والحرام. فقالوا: هاتِ حلالَكِ ولا حاجةَ لنا فيما عداه، فأخذوا حلالَها.

ثم تعرَّضت لمن بعدَهم فطلبوا حلالَها وحده، فقالت: قد ذهب به مَن قبلكم! فأخذوا مكروهَها وشُبهتَها.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٤٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٥٣).
(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٦٥٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٢٦)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٣٤٢٧).
(٣) أخرجه البخاري (٢٨٨٧).

ثم تعرَّضت لمن بعدهم فطلبوا حلالَها فلم يجدوه، فطلبوا شُبهتَها ومكروهَها، فقالت: قد أخذه من كان من قبلكم، قالوا: فهاتِ حرامَك فأخذوه.

فطلبه من بعدهم، فقالت: هو في أيدي الظلمة، قد استأثروا به عليكم، فتحيَّلُوا علىٰ تحصيله منهم بالرغبة والرهبة، فلا يمُدُّ فاجرٌ يدَه إلىٰ شيءٍ من الحرام إلا وجد أفجرَ منه وأقوىٰ قد سبقه إليه.

هذا، وكلهم ضيوفٌ وما بأيديهم عاريةٌ، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أصبح أحد في الدنيا إلا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل، والعارية مُؤَدَّاة»[1].

قالوا: وإنما كان حبُّ الدنيا رأس الخطايا ومفسدًا للدين من وجوه:

أحدها: أن حبَّها يقتضي تعظيمَها، وهي حقيرةٌ عند الله، ومن أكبر الذنوب تعظيمُ ما حقَّر الله.

وثانيها: أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها، ومَن أحبَّ ما لعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرَّض للفتنة ومَقْتِه وغضبه.

وثالثها: أنه إذا أحبَّها صيَّرها غايته وتوسَّل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائلَ إليه والىٰ الدار الآخرة، فعكس الأمر، وقلب الحكمة فانتكس قلبُه، وانعكس سيرُه إلىٰ وراء.

فهاهنا أمران:

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» رقم (٩٠٦).

أحدهما: جعل الوسيلة غاية.

والثاني: التوسُّل بأعمال الآخرة إلىٰ الدنيا.

وهذا شرٌّ معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس، وهذا هو الذي انطبق عليه قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦] وقوله تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨] وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورىٰ: ٢٠].

فهذه ثلاث آيات يُشبه بعضُها بعضًا، وتدل علىٰ معنىٰ واحد، وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة، فحظُّه ما أراد، وهو نصيبه ليس له نصيب غيره، والأحاديث عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مطابقة لذلك مفسرةٌ له، كحديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الثلاثة الذين أول ما تسعَّر بهم النار: الغازي، والمتصدق، والقارئ، الذين أرادوا بذلك الدنيا. وهو في «صحيح مسلم»[1].

وفي «سنن النسائي»[2] عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله رجل غزا يلتمس الأجرَ والذِّكرَ ما له؟ فقال رسول الله: **«لا شيء له»**

(١) برقم (١٩٠٥).

(٢) برقم (٣١٤٠)، وحسنه العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (٤/ ٣٢٥).

فأعادها ثلاثَ مراتٍ، يقول له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا شيءَ له**» ثم قال: «**إن الله تعالىٰ لا يقبل إلَّا ما كان خالصًا وابتُغي به وجهُه**».

فهذا قد بطل أجرُه وحبط عملُه، مع أنه قصد حصولَ الأجر لمَّا ضَمَّ إليه قصْدَ الذكر بين الناس، فلم يُخلِصْ عملَه لله فبطل كلُّه.

***

فصل

ص٤٣١ محبة الدنيا تحول بين العبد وبين ما ينفعه في الآخرة

ورابعها: أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعُه في الآخرة لاشتغاله عنه بمحبوبه.

وأقلُّ درجات حبها أن يَشْغَلَ عن سعادة العبد، وهو تفريغُ القلب لحبِّ الله، ولسانه لذكره، وجمع قلبه علىٰ لسانه، وجمع لسانه وقلبه علىٰ ربه. فعشقُها ومحبتُها تضرُّ بالآخرة ولا بد، كما أن محبة الآخرة تضرُّ بالدنيا.

***

فصل

ص٤٣٣ محبة الدنيا تجعلها أكثر هم العبد

وخامسها: أن محبتها تجعلها أكبرَ همِّ العبد، وقد روىٰ الترمذي في «جامعه»[١] من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كانت الآخرة أكبر همِّه جعل اللهُ غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتَتْه الدنيا وهي راغمة،**

(١) برقم (٢٤٦٥)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٩٤٩).

ومن كانت الدنيا همَّه جعل اللهُ فقرَه بين عينيه، وفرَّق عليه شملَه، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له».

وسادسها: أن مُحبَّها أشدُّ الناس عذابًا، وهو مُعذَّب في دُوره الثلاث؛ يُعذَّب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه علىٰ وجهٍ لا يرجو اجتماعَه به أبدًا، ولم يحصل له هناك محبوب يُعوِّضه عنه، فهذا أشدُّ الناس عذابًا في قبره، يعمل الهمُّ والغمُّ والحزنُ والحسرةُ في روحه ما تعمل الديدان وهوامُّ الأرض في جسمه.

❊❊❊❊❊

ص٤٣٥
لا يؤثر الدنيا علىٰ الآخرة إلا أسفه الخلق

فصل

وسابعها: أن عاشقَها ومحبَّها الذي يؤثرها علىٰ الآخرة مِن أسفهِ الخلق وأقلِّهم عقلًا، إذ آثر الخيالَ علىٰ الحقيقة، والمنامَ علىٰ اليقظة، والظلَّ الزائلَ علىٰ النعيم الدائم، والدارَ الفانيةَ علىٰ الدار الباقية، وباع حياةَ الأبد في أرغد عيش بحياة إنما هي

أحلامُ نومٍ أو كظلٍّ زائلٍ ... إنَّ اللبيبَ بمثلها لا يُخدَعُ[1]

وأشبهُ الأشياء بها امرأةٌ عجوزٌ شوهاءُ قبيحةُ المنظر والمخبر، غدَّارة بالأزواج، تزيَّنت للخُطَّاب بكل زينة، وسترت كلَّ قبيح، فاغترَّ بها من لم يُجاوز بصرُه ظاهرَها، فطلب النكاح، فقالت: لا مهرَ إلا نقدُ الآخرة، فإنَّا ضرَّتان واجتماعُنا غيرُ مأذونٍ فيه ولا مستباح. فآثر الخاطِبُ العاجلةَ وقال: ما علىٰ مَن واصل حبيبته مِن جُناح! فلما

(١) انظر: «الهواتف» لابن أبي الدنيا رقم (٨٨).

كشف قناعَها وحلَّ إزارَها إذا كلُّ آفةٍ وبليَّة، فمنهم من طلَّق واستراح، ومنهم من اختار المُقامَ فما استتمَّتْ ليلةُ عرسه إلا بالعويل والصِّياح.

تالله، لقد أذَّن مؤذنها علىٰ رؤوس الخلائق بحيَّ علىٰ غير الفلاح! فقام المجتهدون والمصلُّون لها فواصلوا في طلبها الغدوَّ بالرَّواح، وسَرَوا ليلهم فلم يَحْمَد القومُ السُّرَىٰ عند الصباح؛ طاروا في صيدها فما رجع أحدٌ منهم إلا وهو مكسور الجناح، فوقعوا في شبكتها فأسلمَتْهم للذّبَّاح.



ص٤٤٤

فصل
في ذكر أمثلة تبيّن حقيقة الدنيا

المثال الأول: للعبد ثلاثة أحوال:

حالة لم يكن فيها شيئًا، وهي ما قبل أن يوجد.

وحالة أخرىٰ وهي من ساعة موته إلىٰ ما لا نهاية له في البقاء السرمد، فلنفسه وجودٌ بعد خروجها من البدن: إما في الجنة، وإما في النار، ثم تُعاد إلىٰ بدنه فيُجازىٰ بعمله، ويسكن إحدىٰ الدارين في خلودٍ دائمٍ.

ثم بين هاتين الحالتين، وهي ما قبل وجوده وما بعد موته، حالة متوسطة، وهي أيام حياته في الدنيا، فليُنظَرْ إلىٰ مقدار زمانها وانسِبْه إلىٰ الحالتين تعلَمْ أنه أقلُّ من طرفةِ عينٍ في مقدار عمر الدنيا.

ومن رأىٰ الدنيا بهذه العين لم يركَنْ إليها، ولم يبالِ كيف تقضَّت أيامُه فيها في ضرٍّ وضيق أو في سعةٍ ورفاهية.

ولهذا لم يضع رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لبِنَة علىٰ لبنة، ولا قصبة علىٰ قصبة، وقال: «**ما لي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثلُ الدنيا كراكبٍ قال في ظلِّ شجرةٍ ثم راح وتركها**»(١).

فصل

ص٤٤٥ المثال الثاني للدنيا وأهلها

المثال الثاني: شهواتُ الدنيا في القلب كشهوات الأطعمة في المعدة، وسوف يجد العبدُ عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنَّتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا انتهت في المعدة غايتها، وكما أن الأطعمة كلما كانت ألذَّ طعمًا وأكثر دسمًا وأكثرَ حلاوةً كان رجيعُها أقذَر، فكذلك كلُّ شهوةٍ كانت في النفس ألذَّ وأقوىٰ فالتأذِّي بها عند الموت أشد، كما أن تفجُّع الإنسانِ بمحبوبه إذا فقده يقوىٰ بقدر محبة المحبوب.

وفي «المسند»(٢) أن النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال للضحَّاك بن سفيان: «**ألست تُؤتىٰ بطعامك وقد مُلِّح وقُزِّح ثم تشرب عليه اللَّبن والماء؟**» قال: بلىٰ. قال: «**فإلامَ يصير؟**» قال: إلىٰ ما قد علمتَ، قال: «**فإن الله عَزَّوَجَلَّ ضرب مَثَل الدنيا لما يصير إليه طعامُ ابنِ آدم**».

❊❊❊❊❊

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وصححه الترمذي.
(٢) في (٣/ ٤٥٢) بنحوه. و«قُزِّح» أي: وُضعت فيه التقازيح، وهي التوابل.

ص٤٤٦
المثال الثالث للدنيا وأهلها

فصل

المثال الثالث لها ولأهلها في اشتغالهم بنعيمها عن الآخرة، وما يعقبُهم من الحسرات:

مثَلُ أهلها في غفلتهم مَثَلُ قومٍ ركبوا سفينةً فانتهت بهم إلىٰ جزيرة، فأمرهم الملَّاح بالخروج لقضاء الحاجة، وحذَّرهم الإبطاء وخوَّفهم مرورَ السفينة، فتفرَّقوا في نواحي الجزيرة، فقضىٰ بعضهم حاجته وبادر إلىٰ السفينة، فصادف المكان خاليًا، فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده.

ووقف بعضهم في الجزيرة ينظر إلىٰ أزهارها وأنوارها العجيبة، ويسمع نغماتِ طيورها، ويُعجبه حسنُ أحجارها، ثم حدَّثته نفسه بفوت السفينة وسُرعةِ مرورها وخطرِ ذهابها، فلم يصادف إلا مكانًا ضيقًا فجلس فيه.

وتولَّج بعضُهم في تلك الغياض ونسي السفينة وأبعدَ في نُزهته، حتىٰ إن الملَّاح نادىٰ بالناس عند دفع السفينة فلم يبلُغْه صوته لاشتغاله بملاهيه.

ثم من هؤلاء من لحق السفينة ولم يبقَ فيها موضعٌ فمات علىٰ الساحل، ومنهم من شغَلَه لهوُه فافترسَتْه السباعُ ونهشَتْه الحيَّات، ومنهم من تاه فهامَ علىٰ وجهه حتىٰ هلك.



ص٤٤٩ المثال الرابع للدنيا وأهلها

فصل

المثال الرابع للدنيا وأهلها:

ما مثَّلها به النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كظلِّ شجرةٍ، والمرءُ مسافر فيها إلىٰ الله، فاستظلَّ في ظلِّ تلك الشجرة في يومٍ صائفٍ ثمَّ راحَ وتركها[١].

❀❀❀❀❀

ص٤٥٠ المثال الخامس للدنيا وأهلها

فصل

المثال الخامس: تمثيلُه لها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمدخل إصبعه في اليمِّ[٢] فالذي يرجع به إصبعه من البحر هو مثل الدنيا بالنسبة إلىٰ الآخرة.

❀❀❀❀❀

فصل

ص٤٥١ المثال السادس للدنيا وأهلها

المثال السادس: ما مثَّلها به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث المتفق علىٰ صحته[٣] من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخطب الناس فقال: «**لا واللهِ ما أخشىٰ عليكم إلا ما يُخرج اللهُ لكم من زَهرة الدنيا**» فقال رجل: يا رسول الله أَوَ يأتي الخيرُ بالشر؟ فصَمَت رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم قال: «**كيف**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البخاري (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢).

قلت؟» قال: يا رسول الله أَوَ يأتي الخيرُ بالشر؟ فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الخيرَ لا يأتي إلا بالخير، وإنَّ مما يُنبتُ الربيعُ ما يقتُلُ حَبَطًا أو يُلمُّ، إلا آكِلَةَ الخَضِر، أكلَتْ، حتىٰ إذا امتلأت خاصِرَتاها استقبلت الشمس فاجترَّتْ وثَلَطَتْ وبالت، ثم فعادَتْ فأكلت؛ فمن أخذ مالًا بحقِّه يُبارَك له فيه، ومن أخذ مالًا بغير حقِّه فمَثَلُه كمثل الذي يأكل ولا يشبع**».

أول الحديث مثَلٌ للشَّرِهِ في جمع الدنيا الحريص علىٰ تحصيلها، فمثاله: مثال الدابَّة التي حملها شَرَهُ الأكل علىٰ أن قتلها حَبطًا أو ألَمَّ بقتلها، فإن الشَّرِهَ الحريصَ إما هالك وإما قريبٌ من الهلاك.

وآخر الحديث مثَلٌ للمقتصد بآكلة الخضر الذي تنتفع الدابَّة بأكله، ولم يَحْمِلها شرهُها وحرصُها علىٰ تناولها منه فوقَ ما تحتمله، بل أكلَتْ بقدرِ حاجتها، وهكذا هذا أخذ ما يحتاج إليه ثم أقبل علىٰ ما ينفعه.

وتضمَّن الخبر أيضًا إرشادَ المُكثر من المال إلىٰ ما يحفظ عليه قوَّته وصحَّته في بدنه وقلبه، وهو الإخراج منه وإنفاقه، ولا يحبسه فيضرُّه حَبْسُه.

❊❊❊❊❊

فصل

ص٤٥٧ المثال السابع للدنيا وأهلها

المثال السابع: مثال حَبٍّ قد نثر علىٰ وجه الأرض، وجعلت كل حبة في فخ، وجعل حوالي ذلك الحب حبٌّ ليس في فخاخ، فجاءت الطير، فمنها من قنع بالجوانب ولم يرِم

نفسه في وسط الحبّ فأخذ حاجته ومضىٰ، ومنها من حمله الشره علىٰ اقتحام معظم الحبّ ووسطه، فما استتم اللقاط إلا وهو يصيح من أخذة الفخ له.

❊❊❊❊❊

فصل

ص٤٦٠ المثال الثامن للدنيا وأهلها

المثال الثامن: رجل هيَّأ دارًا وزيَّنها، ووضع فيها من جميع الآلات، ودعا الناسَ إليها، فكلَّما دخل داخلٌ أجلسه علىٰ فراشٍ وطيء، وقدَّم إليه طبقًا من ذهب عليه لحم، ووضع بين يديه أوانيَ مفتخرةً فيها من كل ما يحتاج إليه، وأَخْدَمَه عَبِيدَه ومماليكه.

فعرف العاقل أن ذلك كلَّه متاعُ صاحب الدار وملكه وعبيده، فاستمتع بتلك الآلات والضيافة مدَّة مُقامه في الدار، ولم يُعلِّق قلبَه بها ولا حدَّث نفسه بتملُّكها، فدخل الدار كريمًا، وتمتَّع فيها كريمًا، وفارقها كريمًا، وربُّ الدار غيرُ ذامٍّ له.

وأما الأحمق، فحدَّث نفسه بسكنىٰ الدار، وحوزِ تلك الآلات إلىٰ ملكه، وتصرُّفِه فيها بحسب شهوته وإرادته، فتخيَّر المجلس لنفسه، وجعل ينقل تلك الآلات إلىٰ مكامِن في الدار يَخْبَؤُها فيه، وربُّ الدار يشاهد ما يصنع، وكرمُه يمنعه من إخراجه من داره، حتىٰ إذا ظنَّ أنه استبدَّ بتلك الآلات أرسل إليه مالكُها عبيدَه فأخرجوه منها إخراجًا عنيفًا، وسلبوه كلَّ ما هو فيه، ولم يصحَبْه من تلك الآلات شيء، وحصل علىٰ مقتِ ربِّ الدار له وافتضاحه عنده وبين مماليكه وحشمه.

فليتأمَّل اللبيبُ هذا المثالَ حقَّ التأمُّل، فإنه مطابق للحقيقة، والله المستعان.



قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كلُّ أحدٍ في هذه الدنيا ضيف ومالُه عارية، فالضيف مُرتَحِل والعارية مُؤَدَّاة»[1].

❖❖❖❖❖

ص٤٧٤ أمثلة أخرىٰ للدنيا

فصل

وقد مُثِّلت الدنيا بمنام، والعيشُ فيها بالحلم، والموتُ باليقظة.

ومُثِّلت بمزرعة، والعملُ فيها بالبذر، والحصاد يوم المعاد.

ومُثِّلت بدارٍ لها بابان: باب يدخل منه الناس، وباب يخرجون منه.

ومُثِّلت: بحيَّةٍ ناعمة الملمس، حسنةِ اللون، وضربتها الموت.

ومُثِّلت: بطعام مسموم، لذيذِ الطَّعم، طيِّب الرائحة، مَن تناول منه قدر حاجته كان فيه شفاؤه، ومن زاد علىٰ حاجته كان فيه حَتفُه.

ومُثِّلت: بالطعام في المعدة، إذا أخذت الأعضاء منه حاجتها فحَبْسُه قاتل أو مؤذٍ ولا راحة لصاحبه إلا في خروجه، كما أشار إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آكلة الخضر، وقد تقدَّم.

ومُثِّلت بامرأةٍ من أقبح النساء قد انتقبت علىٰ عينين فتنت بهما الناسَ، وهي تدعو الناس إلىٰ منزلها، فإذا أجابوها كشفَتْ لهم عن منظرها وذبحَتْهم بسكاكينها

(١) سبق تخريجه.

وألقتهم في الحفر، وقد سُلِّطَتْ علىٰ عُشَّاقها تفعل بهم ذلك قديمًا وحديثًا، والعجب أن عشاقها يرون إخوانهم صرعىٰ قد حلَّت بهم الآفات، وهم يتنافسون في مصارعهم ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

ويكفي في تمثيلها ما مثَّلها الله سبحانه في كتابه فهو المثل المنطبق عليها.

قالوا: وإذا كان هذا شأنها فالتقلُّلُ منها والزهدُ فيها خير من الاستكثار منها والرغبة فيها.

قالوا: ومن المعلوم أنه لا تجتمع الرغبةُ فيها والرغبةُ في الله والدار الآخرة أبدًا، ولا تسكن هاتان الرغبتان في مكانٍ واحدٍ إلا وطردَتْ إحداهما الأخرىٰ، واستبَّدَتْ بالمسكن، ولا تجتمع بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبنت عدوِّ الله عند رجلٍ واحدٍ أبدًا[١].

قالوا: وقد سأل رجلٌ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدلَّه علىٰ عمل إذا فعله أحبَّه اللهُ وأحبَّه الناس فقال له: «**ازهَدْ في الدنيا يُحِبَّك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يُحبَّك الناس**»[٢] فلو كان الغنىٰ أفضل لدلَّه عليه.

قالوا: والفقير لا ينفك في خصاصة من مضض الفقر والجوع والعُرْي والحاجة وآلام الفقر، وكلُّ واحدٍ منها يكفِّر ما يقاومه من السيئات، وذلك زيادةً علىٰ أجره

(١) يشير إلىٰ ما أخرجه البخاري (٣١١٠)، ومسلم (٢٤٤٩).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢)، وضعفه البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٤/ ٢١٠).

بأعمال البر.

فقد شارك الأغنياء بأعمال البرّ، وامتاز عنهم بما يُكفِّر سيئاتِه، وما امتازوا به عليه من الإنفاق والصدقة والنفع المتعدي فله سبيل إلىٰ لحاقهم فيه ونيلِه مثل أجورهم، وهو أن يعلم اللهُ من نيَّته أنه لو أُوتي مثلَ ما أُوتُوه لفعَلَ كما يفعلون، فيقول: لو أنَّ لي مالًا لعملتُ بأعمالهم، فهو بنيته وأجرُهما سواء، كما أخبر به الصادق المصدوق في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

قالوا: والفقير الفقيه في فقره يمكنه لحاقُ الغنيِّ في جميع ما ناله بغناه بنيته وقوله، فيساويه في أجره، ويتميز عنه بعدم الحساب علىٰ المال، فساواه بثوابه وتخلَّصَ من حسابه، كما تميز عنه بسبقه إلىٰ الجنة بخمسمائة عام، وتميَّز عنه بثواب صبره علىٰ ألم الفقر وخصاصته.

قال الإمام أحمد[2]: حدثنا عبدُ الله بن نُمَير، حدثنا عُبادة بن مسلم، حدثني يونس ابن خبَّاب، عن أبي البَخْتري الطائي، عن أبي كبشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ثلاثٌ أُقسم عليهن، وأحدثكم حديثًا فاحْفظُوه، فأما الثلاث التي أقسم عليهن: فإنه ما نقص مالُ عبدٍ من صدقة، ولا ظُلم عبدٌ مظلمةً فصبر عليها إلا زاده الله عَزَّوَجَلَّ بها عزًّا، ولا يفتح عبدٌ بابَ مسألةٍ إلا فتح اللهُ له بابَ فقر. وأما الذي أحدثكم**

(١) سيأتي لفظه قريبًا مع تخريجه.

(٢) في «المسند» (٤/ ٢٣٠)، وأخرجه أيضًا الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

حديثًا فاحفظوه» فإنه قال: «**إنما الدنيا لأربعة نفرٍ: عبد رزقه الله** عَزَّوَجَلَّ **مالًا وعلمًا، فهو يتقي فيه ربَّه، ويَصِلُ فيه رحمه، ويعلم فيه لله حقًّا»** قال: «**فهذا أفضل المنازل عند الله. وعبدٌ رزقه اللهُ علمًا، ولم يرزقه مالًا، فهو يقول: لو كان لي مالٌ عملتُ بعمل فلان»** قال: «**فأجرهما سواء. وعبدٌ رزقه الله مالًا، ولم يرزُقْه علمًا، فهو يتخبَّطُ في ماله بغير علمٍ لا يتقي فيه ربَّه، ولا يَصِل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأخبث المنازل عند الله. وعبدٌ لم يرزقه الله مالًا ولا علمًا، فهو يقول: لو كان لي مال لفعلتُ بفعل فلان»** قال: «**فهو بنيَّته ووِزرُهما سواء»**.

فلما فضَلَ الغنيُّ بفعله ألحَقَ الفقيرَ الصادق به بنيَّته، فالغنيُّ هنالك إنما نقص بتخلُّفه عن العمل، والفقير إنما نقص بسوء نيته، فلم ينفع الغنيَّ غناه مع التخلُّف، ولا ضرَّ الفقيرَ فقرُه مع حسن النيَّة، ولا نفعه فقرُه مع سوء نِيَّتِه.

قالوا: ففي هذا بيانٌ كافٍ شافٍ في المسألة، حاكم بين الفريقين، وبالله التوفيق.

ص٤٨٢

الباب الرابع والعشرون

في ذكر ما احتجَّت به الأغنياءُ من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

قالت الأغنياء: لقد أجلبتم علينا أيها الفقراءُ بخيل الأدلَّة ورَجِلِها، ونحن نعلم أن عندكم مثلَها وأكثرَ من مثلِها، ولكن تَوَسطتم بين التطويل والاختصار، وظننتم أنها حكمت لكم بالفضل دون ذوي اليسار، ونحن نحاكمكم إلىٰ ما حاكمتمونا إليه، ونعرِض بضاعتنا علىٰ من عرضتم بضاعتكم عليه، ونضع أدلَّتنا وأدلَّتكم في ميزان الشرع والعقل الذي لا يَعُول، فحينئذٍ يتبين لنا ولكم الفاضل من المفضول.

ولكن أخرجوا من بيننا من تشَبَّه بالفقراء الصادقين الصابرين، ولَبِس لباسَهم علىٰ قلبِ أحرصِ الناس علىٰ الدنيا وأشحِّهم عليها وأبعدِهم من الفقر والصبر، مِن كلِّ مظهرٍ للفقر، مُبطنٍ للحرص، غافلٍ عن ربه، مُتَّبعٍ لهواه، مفرِّطٍ في أمر معاده، قد جعل زيَّ الفقر صناعةً؛ أو فقيرِ جائحةٍ فقرُه اضطرارٌ لا اختيار، فزُهده زهدُ إفلاسٍ لا زهدُ رغبةٍ في الله والدار الآخرة؛ أو فقيرٍ يشكو ربَّه بلسانِ قالِه وحالِه غيرِ راضٍ عن ربه في فقره، بل إن أُعطي رضي وإن مُنع سَخِط، شديدِ اللَّهف علىٰ الدنيا والحسرة عليها وهو أفقر الناس منها، فهو أرغبُ شيءٍ فيها وهي أزهد شيءٍ فيه!

وأخرجوا من بيننا ذا الثروة الجَموع المَنوع المُتكاثر بماله المُستأثِر به، الذي عضَّ عليه بناجذه، وثنىٰ عليه خنصره، يفرح بزيادته ويأسىٰ علىٰ نقصانه، فقلبه به مشغوف، وهو علىٰ تحصيله ملهوف، إن عَرَض سوقُ الإنفاق والبذل أعطىٰ قليلًا وأكدىٰ، وإن دُعي إلىٰ الإيثار أمعن في الهَرَب جدًّا.

وأخلِصُونا وإخوانَنا من سُبَّاق الطائفتين وسادات الفريقين الذين تسابقوا إلىٰ الله والدار الآخرة بإيمانهم وأحوالهم، ونافسوا في القرب منه بأعمالهم وأموالهم، فقلوبهم عاكفة عليه، وهمتهم إلىٰ المسابقة إليه، ينظر غنيُّهم إلىٰ فقيرهم فإذا رآه قد سبقه إلىٰ عملٍ صالحٍ شمَّر إلىٰ اللحاق به، وينظر فقيرهم إلىٰ غنيهم فإذا رآه قد فاته بإنفاقٍ في طاعة الله أنفق هو مِن أعماله وأقواله وصبره وزهده نظيرَ ذلك أو أكثر منه؛ فهؤلاء إخواننا الذين تكلَّم الناس في التفضيل بينهم وأيهم أعلىٰ درجة. وأما أولئك فإنما يُنظَر أيُّهم تحتَ الآخَرِ في العذاب وأسفلَ منه، والله المستعان.

إذا عُرِف هذا، فقد مدح الله سبحانه في كتابه أعمالًا، وأثنىٰ علىٰ أصحابها، ولا تحصل إلا بالغنىٰ، كالزكاة والإنفاق في وجوه البر، والجهاد في سبيل الله بالمال، وتجهيز الغُزاة، وإعانة المَحَاويج، وفكِّ الرقاب، والإطعام في زمن المَسْغَبة.

وأين يقع صبرُ الفقير من فرحة الملهوف المضطرِّ المُشْرِفِ علىٰ الهلاك إذا أعانه الغنيُّ ونصره علىٰ فقره ومخمَصَتِه!

وأين يقع صبره من نفع الغني بماله في نصرة دين الله وإعلاء كلمته وكسر أعدائه!

وأين يقع صبر أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ الفقر إلىٰ شكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ربَّه وشرائِه المعذَّبِين في الله وإعتاقِهم، وإنفاقه علىٰ نصرة الإسلام حين قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما نفعني مالُ أحدٍ ما نفعني مالُ أبي بكر**»[1]!

وأين يقع صبرُ أهل الصفة من إنفاق عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تلك النفقاتِ العظيمةَ التي

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٦١)، وابن ماجه (٩٤)، وقال الترمذي: «حسن غريب».

قال له رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في بعضها: «**ما ضرَّ عثمانُ ما فعل بعد اليوم**»[١] ثم قال: «**غفر اللهُ لك يا عثمانُ ما أسررتَ وما أعلنت، وما أخفيت وما أبديت**» أو كما قال[٢].

وإذا تأمَّلتم القرآن، وجدتم الثناء فيه علىٰ المنفقين أضعافَ الثناءِ علىٰ الفقراء الصابرين.

وقد شهد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بأن اليد العُليا خيرٌ من اليد السفلىٰ، وفسَّر اليد العليا بالمُعطية، والسُّفلىٰ بالسائلة[٣].

وقد عدَّد اللهُ سبحانه علىٰ رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من نعمه أن أغناه بعد فقره، وكان غناه هو الحالةَ التي نقله إليها، وفقرُه الحالةَ التي نقله منها، وهو سبحانه كان ينقله من الشيء إلىٰ ما هو خير منه.

قالوا: والغنىٰ مع الشكر زيادة فضل ورحمة ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

قالوا: والأغنياء الشاكرون سببٌ لطاعة الفقراء الصابرين، لتقويتهم إياهم بالصدقة عليهم، والإحسان عليهم، وإعانتهم علىٰ طاعتهم، فلهم نصيبٌ وافرٌ من أجور الفقراء، زيادةً إلىٰ نصيبهم من أجر الإنفاق وطاعاتهم التي تخصُّهم.

كما في «صحيح ابن خزيمة»[٤] من رواية سلمان الفارسي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن النبي

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٠١) وقال: «حسن غريب»، وصححه الحاكم (٣/ ١٠٢)
(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» رقم (٨٥٤).
(٣) أخرجه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣).
(٤) برقم (١٨٨٧).

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكر شهر رمضان فقال: «**من فطَّر فيه صائمًا كان مغفرةً لذنوبه وعِتْقَ رقبتِه من النار، وكان له مثلُ أجره من غير أن يَنقُصَ من أجره شيء**».

فقد حاز الغني الشاكر أجرَ صيامه هو، ومثل أجر الفقير الذي فطَّره.

قالوا: ولو لم يكن للغنيِّ الشاكر إلا فضلُ الصدقة التي لمَّا تفاخرت الأعمالُ كان الفخرُ لها عليهن، كما ذكر النَّضْر بن شُمَيل عن قُرَّة عن سعيد بن المسيب أنه حدث عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «ذُكر أن الأعمال الصالحة تتباهىٰ، فتقول الصدقة: أنا أفضلكم»[1].

قالوا: والصدقة وقاية بين العبد وبين النار، والمُخْلِصُ المُسِرُّ بها مستظلٌّ بها يوم القيامة في ظلّ العرش[2].

وقد روىٰ عَمْرو بن الحارث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عقبة ابن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الصدقةَ لتطفئ علىٰ أهلها حرَّ القبور، وإنما يستظلُّ المؤمنُ يومَ القيامة في ظلِّ صدقته**»[3].

وقال يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عقبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يرفعه: «**كل امرئٍ في ظلِّ صدقته حتىٰ يُقضىٰ بين الناس**» قال يزيد: وكان أبو الخير لا يأتي عليه يومٌ إلا تصدَّق

(١) أخرجه ابن خزيمة رقم (٢٤٣٣).
(٢) كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله. أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).
(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» برقم (٧٨٧، ٧٨٨) في المجلد (١٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٣٤٨٤).

فيه، ولو بكعكة أو بَصْلةٍ[١].

وفي حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والصدقة تُطفئ الخطيئةَ كما يُطفئ الماءُ النار**»[٢].

وفي «الصحيحين»[٣] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا تصدَّق الرجل من كسبٍ طيِّب، ولا يقبل الله إلا طيِّبًا، أخذها اللهُ بيمينه، فيُربِّيها لأحدهم كما يُربِّي أحدُكم فَلُوَّه أو فَصِيله**[٤] **حتىٰ تكون مثل الجبل العظيم**».

وإذا كان الله سبحانه قد غفر لمن سقىٰ كلبًا علىٰ شدة ظمئه[٥] فكيف بمن سقىٰ العِطاش، وأشبَعَ الجِياع، وكسا العُراةَ من المسلمين!

وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتقوا النارَ ولو بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فإن لم تجدوا فبكلمةٍ طيبة**»[٦] فجعل الكلم الطيِّب عوضًا عن الصدقة لمن لا يقدر عليها.

قالوا: وأين لذَّة الصدقة والإحسان، وتفريحُهما القلبَ، وتقويتهما إياه، وما يُلقي الله سبحانه للمتصدِّقين من المحبة والتعظيم في قلوب عباده والدعاءِ لهم والثناءِ عليهم، وإدخالِ المسرات عليهم، من أجر الصبر علىٰ الفقر!

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٤٧)، وصححه ابن خزيمة (٢٤٣١)، وابن حبان (٣٣١٠).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الترمذي.
(٣) البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).
(٤) الفَلُوُّ: المُهر، والفَصيل: ولد الناقة إذا فصل من إرضاع أمه.
(٥) أخرجه البخاري (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٢٤٤).
(٦) أخرجه البخاري (٦٥٤٠)، ومسلم (١٠١٦).

نعم، إن له لأجرًا عظيمًا، لكن الأجرَ درجاتٌ عند الله.

قالوا: وأيضًا، فالصدقة والاحسان والإعطاء وصفُ الرب تعالىٰ، وأحبُّ عباده إليه من اتَّصف بذلك، كما قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**الخلقُ عِيال الله، فأحبُّ الخلق إليه أنفعهم لعياله**»[1].

قالوا: وقد ذكر الله سبحانه أصناف السعداء؛ فبدأ بالمتصدقين أوَّلِهم، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ [الحديد:١٨-١٩] فهؤلاء أصناف السعداء، ومقدَّموهم المصدقون والمصدقات.

قالوا: وفي الصدقة فوائد ومنافع لا يحصيها إلا الله.

قالوا: ولو لم يكن في النفع والإحسان إلا أنه صفة الله، وهو سبحانه يحبُّ من اتصف بموجَب صفاتِه وآثارها، فيُحبُّ العليم والجواد والحييَّ والسَّتِيرَ، والمؤمنُ القويُّ أحب إليه من المؤمن الضعيف، ويُحبَّ العدل والعَفُوَّ والرحيم والشَّكور والبَرَّ والكريم، فصفته الغنىٰ والجودُ، ويحب الغنيَّ الجواد.

قالوا: ويكفي في فضل النفع المتعدي بالمال أن الجزاءَ عليه من جنس العمل، فمَن كسا مؤمنًا كساه الله من حلل الجنة.

قالوا: وقد جعل رسولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الطاعمَ الشاكرَ بمنزلة الصائم

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (٣٣١٥)، وضعَّفه البيهقي في «شعب الإيمان» بعد روايته له (٧٤٤٧)، وضعَّفه أيضًا الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٩١).

الصابر[١] ومعلوم أنه إذا تعدَّىٰ شكرُه إلىٰ الإحسان إلىٰ الغير ازدادَ درجةً أخرىٰ، فإن الشكر يتضاعف إلىٰ ما لا نهاية له، بخلاف الصبر فان له حدًّا يقف عنده. وهذا دليل مستقلٌّ في المسألة.

يوضحه أن الشكر أفضل من الرضا الذي هو أعلىٰ من الصبر، فإذا كان الشاكرُ أفضلَ من الراضي الذي هو أفضل من الصابر، كان أفضل من الصابر بدرجتين.

قالوا: وفي «الصحيحين»[٢] من حديث الزهري عن سالم عن أبيه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا حسَدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله القرآنَ فهو يقوم به آناءَ الليل والنهار، ورجلٌ آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل والنهار**».

فجعل الغنىٰ مع الإنفاق بمنزلة القرآن مع القيام به.

قالوا: وقد صرَّح في حديث أبي كبشه الأنماري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٣] أن صاحب المال إذا عمل في ماله بعلمه، واتقىٰ فيه ربه، ووصل به رحمه، وأخرج منه حقَّ الله، فهو في أعلىٰ المنازل عند الله، وهذا صريح في تفضيله، وجعل الفقير الصادق إذا نوىٰ أن يعمل بعمله وقال ذلك بلسانه ثانيًا له، وأنه بنيَّته وقوله، وأجرُهما سواء، فإن كلًّا منهما نوىٰ خيرًا وعمل ما يقدر عليه، فالغني نواه ونفَّذه بعمله، والفقير العالم نواه ونفَّذه بلسانه، فاستويا في الأجر من هذه الجهة.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) البخاري (٧٥٢٩)، ومسلم (٨١٥).
(٣) سبق تخريجه.

ولا يلزم من استوائهما في أصل الأجر استواؤهما في كيفيته وتفاصيله، فإن الأجر علىٰ العمل والنيَّة له مزية علىٰ الأجر علىٰ مجرَّد النية التي قارنها القول، ومن نوىٰ الحجَّ، ولم يكن له مال يحجُّ به وإن أثيب علىٰ ذلك، فإن ثوابَ مَن باشر أعمال الحجِّ مع النية له مزيَّة عليه.

وإذا أردتَ فهم هذا فتأمل قول النبي ﷺ: «من سأل الله الشهادة خالصًا من قلبه بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات علىٰ فراشه»[١].

يوضِّحُ هذا: أن فقراء المهاجرين شكَوا إلىٰ رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله، ذهب أهلُ الدثور بالأجور؛ يصومون كما نصوم، ويصلُّون كما نصلي، ولهم فُضُول أموالٍ يحجُّون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدَّقون. قال: «أفلا أعلِّمكم شيئًا تدركون به من سبقكم، وتَسبقون به مَن بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضلَ منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا: بلىٰ يا رسول الله. قال: «تسبِّحون، وتكبِّرون، وتحمدون دُبُرَ كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين» فرجع فقراءُ المهاجرين إلىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهلَ الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله. فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء»[٢].

فلو كانوا يلحقونهم في مقدار الأجر بمجرد النية، لقال لهم: انْوُوا أن تفعلوا مثل فِعلهم فتنالوا مثلَ أجرهم، فلما أعاضهم عمَّا فاتهم من ثواب الصدقة والعتق والحجِّ والاعتمار بتحصيل نظيره بالذكر، عُلم أن الأغنياء قد فضلوهم بالإنفاق، فلما شاركوهم

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٩).
(٢) سبق تخريجه.

في الذكر بقيت مزيةُ الإنفاق، فشكَوا إلىٰ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن الامتياز لم يَزَل وأنهم قد ساوَونا في الذكر كما ساوَونا في الصلاة والصوم، فأخبرهم أن ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، فلو كان لهم سبيلٌ إلىٰ مساواتهم من كل وجهٍ بالنية والقول لدلَّهم عليه.

قالت الفقراء: هذا الحديث حجة لنا إذا فُهم علىٰ الحقيقة، وذلك أن معناه أنهم وإن كانوا قد ساوَوكم في الإيمان والإسلام والصلاة والصيام، ثم فضلوكم في الإنفاق، ففي التكبير والتسبيح والتهليل ما يُلحِقكم بدرجتهم، وقد ساويتموهم أيضًا بحسن النية، إذ لو أمكنكم لأنفقتم مثلهم.

وفي بعض ألفاظ هذا الحديث: «**إن أخذتم به سَبَقتم مَن قبلكم، ولم يلحقكم من بعدكم**»[1] وهذا يدل علىٰ أن الأغنياء لا يلحقونهم، وإن قالوا مثل قولهم.

وقوله: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**» معناه أن فضل الله ليس مقصورًا عليكم دونهم، فكما آتاكم الله من فضله بالذكر كذلك يؤتيهم إياه إذا عملوا مثلكم، وليس في هذا دليل أنهم أفضل منكم، وإنما معناه أن فضل الله الذي يتناولكم بذكره يتناولهم مثلكم أيضًا، فأنتم فهمتم من الفضل التخصيصَ فوضعتموه في غير موضعه، وإنما معناه العموم والشمول، وأن فضله عام شامل للأغنياء والفقراء فلا تذهبون به دونهم، فأين في هذا الحديث التفضيل لكم علينا!

قالت الأغنياء: قد بالغتم في صرف الحديث عن مقصوده إلىٰ جهتكم، وهو صريح في تفضيل هذا الجانب لمن أنصف، فإن قوله: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**» خرج

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ولفظه: «**أدركتم من سبقكم، ولم يدرككم أحدٌ بعدكم**».

جوابًا للفقراء عن قولهم إن أهل الدثور قد ساوَوهم في الذكر كما ساوَوهم في الصلاة والصوم والإيمان، وبقيت مزيةُ الإنفاق لم يحصل لنا ما نلحقهم فيها، وما علَّمتَناه من الذكر قد لحقونا فيه، فقال لهم حينئذ: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**» وهذا صريح جدًّا في مقصوده.

قالوا: وقد سمَّىٰ اللهُ سبحانه المال خيرًا في غير موضعٍ من كتابه، كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠] وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وأخبر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أن الخير لا يأتي إلا بالخير**» كما تقدم، وإنما يأتي بالشر معصيةُ الله في الخير لا نفسه.

وأعلم اللهُ سبحانه أنه جعل المال قِوامًا للأنفس، وأمر بحفظها، ونهىٰ أن يؤتوا السفهاء من النساء والأولاد وغيرهم[1] ومدحه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بقوله: «**نِعم المالُ الصالحُ مع الرجل الصالح**»[2].

وقال سعيد بن المسيب: «لا خير فيمن لا يريد جمعَ المال مِن حلِّه، يكفُّ به وجهَه عن الناس، ويَصِل به رحمَه، ويعطي منه حقَّه»[3].

وقال أبو اسحاق السَّبِيعي: «كانوا يرون السعةَ عونًا علىٰ الدين»[4].

---

(١) فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمًا﴾ الآية [النساء: ٥].

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٩٧)، وصححه الحاكم (٢/ ٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» رقم (٥٥).

(٤) أخرجه أحمد في «العلل ومعرفة الرجال» رقم (٩٩٩).

وقال محمد بن المنكدر: «نِعم العونُ علىٰ التقوىٰ الغنىٰ»[١].

وقال سفيان الثوري: «المال في زماننا هذا سلاح المؤمن»[٢].

وقال يُوسف بن أسباط: «ما كان المالُ في زمان منذ خلقت الدنيا أنفعَ منه في هذا الزمان، والخير كالخيل: لِرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سترٌ، وعلىٰ رجل وِزرٌ»[٣].

قالوا: وقد جعل الله سبحانه المال سببًا لحفظ البدن، وحفظَه سببًا لحفظ النفس التي هي محلُّ معرفة الله والإيمان به وتصديق رسله ومحبته والإنابة إليه، فهو سببُ عمارة الدنيا والآخرة. وإنما يُذَمُّ منه ما استُخرج من غير وجهه وصُرِف في غير حقِّه، واستَعْبَد صاحبَه وملَكَ قلبَه وشغله عن الله والدار الآخرة؛ فيذمُّ منه ما يَتوسل به صاحبُه إلىٰ المقاصد الفاسدة أو شغله عن المقاصد المحمودة، فالذمُّ للجاعل لا للمجعول كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم**»[٤] فذمَّ عبدَهما دونهما.

قالوا: ومن فوائد المال أنه قِوام العبادات والطاعات، وبه قام سوقُ الحجِّ والجهاد، وبه حصل الإنفاقُ الواجبُ والمستحبُّ، وبه حصلت قرباتُ العتقِ والوقفِ وبناءِ المساجد والقناطر وغيرها، وبه يتوصل إلىٰ النكاح الذي هو أفضلُ من التخلِّي لنوافل العبادة، وعليه قام سوق المروءة، وبه ظهرت صفةُ الجود والسَّخاء، وبه وُقِيت الأعراض.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» رقم (٥٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» رقم (٧٩).

(٣) أخرج ابن حبان في «روضة العقلاء» ص ٢٥٣ الشطر الأول منه. وقوله: «الخير كالخيل» يشير إلىٰ حديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الخيل لثلاثةٍ: لرجل أجرٌ، ولرجل سترٌ...». أخرجه البخاري (٢٨٦٠)، ومسلم (٩٨٧).

(٤) سبق تخريجه.

والجهاد ذُروة سنام العمل، وتارة يكون بالنفس، وتارة يكون بالمال، وربما كان الجهاد بالمال أنكىٰ وأنفع، وبأي شيءٍ فَضَل عثمانُ علىٰ عليٍّ، وعليٌّ أكثرُ جهادًا بنفسه وأسبقُ إسلامًا من عثمان! وهذا الزبير وعبد الرحمن بن عوف أفضلُ من جمهور الصحابة مع الغنىٰ الوافر، وتأثيرهم في الدين أعظم من تأثير أهل الصفة.

وقد نهىٰ رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن إضاعته[١] وأخبر أن ترك الرجل ورثته أغنياءَ خيرٌ له من تركهم فقراء، وأخبر أن صاحب المال لن يُنفق نفقة يبتغي بها وجه الله إلا ازداد بها درجة ورفعة[٢].

وقد استعاذ رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الفقر وقرَنَه بالكفر، فقال: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر**»[٣].

ونحن لا ننكر أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان فقيرًا ثم أغناه الله، واللهُ فتح عليه وخوَّله ووسَّع عليه، وكان يدَّخر لأهله قوت سنة[٤]، ويعطي العطايا التي لم يعطها أحدٌ غيره، وكان يُعطي عطاءَ من لا يخاف الفقر[٥]، ومات عن فَدَك والنَّضِير[٦]، وأموالٍ خصَّه الله بها، وقال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الحشر: ٧].

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٣)، ومسلم (٥٩٣).
(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).
(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، والنسائي (١٣٤٧)، وصححه ابن خزيمة (٧٤٧).
(٤) أخرجه البخاري (٥٣٥٧)، ومسلم (١٧٥٧).
(٥) أخرجه مسلم (٢٣١٢).
(٦) من أراضي الفيء التي أفاء اللهُ بها علىٰ رسوله. انظر في فدك: البخاري (٤٠٣٥)، ومسلم (١٧٥٩). وانظر في النضير: البخاري (٢٩٠٤)، ومسلم (١٧٥٧).

فنزَّهه ربه سبحانه عن الفقر الذي يسوِّغ الصدقة، وعوَّضه عما نزَّهه عنه بأشرف المال وأحلِّه وأفضله، وهو ما أخذه بظلِّ رُمحه وقائم سيفه من أعداء الله[1]، الذين كان مال الله بأيديهم ظلمًا وعدوانًا، فإنه خُلِق المالُ ليُستعان به علىٰ طاعته.

فجمع اللهُ له سبحانه بين أعلىٰ أنواع الغنىٰ وأشرف أنواع الفقر، فكمَّل له مراتب الكمال، فليست إحدىٰ الطائفتين بأحق به من الأخرىٰ، فكان في فقره أصبرَ خلقِ الله وأشكرهم له، وكذلك كان في غناه.

والله تعالىٰ جعله قدوةً للأغنياء والفقراء، وأيُّ غنًىٰ أعظم مِن غنىٰ مَن عُرضت عليه مفاتيحُ كنوز الأرض[2]، وعُرِض عليه أن يُجعل له الصفا ذهبًا[3]، وخُيِّر بين أن يكون مَلِكًا نبيًّا وبين أن يكون عبدًا نبيًّا فاختار أن يكون عبدًا نبيًّا[4]، ومع هذا فجُبِيَتْ إليه أموال جزيرة العرب واليمن، فأنفقها كلَّها ولم يستأثر منها بشيء، بل تحمَّل عيالَ المسلمين ودَينهم، فقال: «**من ترك مالًا فَلِورثته، ومن ترك كلًّا فإليَّ وعليَّ**»[5].

فرفع اللهُ سبحانه قدرَه أن يكون من جملة الفقراء الذين تحِلُّ لهم الصدقة، كما نزَّهه أن يكون من جملة الأغنياء الذين أغناهم بالأموال المَورُوثة، بل أغناه به عن سواه،

---

(١) وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جُعل رزقي تحت ظلِّ رُمحي». أخرجه أحمد (٢/ ٥٠)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (٥/ ١٠٩).

(٢) كما في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني أُعطيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرض». أخرجه البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢٤٢)، وصححه الحاكم (١/ ٥٣).

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٣١)، وصححه ابن حبان (٦٣٦٥).

(٥) أخرجه البخاري (٢٣٩٨)، ومسلم (١٦١٩).

وأغنىٰ قلبه كلَّ الغنىٰ، ووسَّع عليه غايةَ السعة، فأنفق غاية الإنفاق، وأعطىٰ أجلَّ العطايا، وما استأثر بالمال، ولا اتَّخذ منه عقارًا ولا أرضًا، ولا ترك شاة ولا بعيرًا ولا عبدًا ولا أمةً ولا دينارًا ولا درهمًا.

فإذا احتجَّ الغني الشاكر بحاله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُمكنه ذلك إلا بعد أن يفعل فعلَه، كما أن الفقير الصابر إذا احتجَّ بحاله لم يُمكنه ذلك إلا بعد أن يصبر صبره ويترك الدنيا اختيارًا لا اضطرارًا، فرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفَّىٰ كلَّ مرتبةٍ من مرتبتي الفقر والغنىٰ حقَّها وعبوديتها.

قالوا: وما ذكرتم من الزهد في الدنيا والتقلُّل منها، فالزهدُ فيها لا ينافي الغنىٰ، بل زهد الغني أكمل من زهد الفقير، فإن الغنيَّ زَهِد عن قدرة، والفقير عن عجز، وبينهما بون بعيد. ولهذا قال بعض السلف وقد سُمِّي له جماعة من الزهاد، فقال: «الزاهد: عمر بن عبد العزيز الذي جاءت الدنيا إلىٰ تحت قدميه فزهد فيها»[1].

وقد كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حال غناه أزهدَ الخلق، وكذلك إبراهيم الخليل كان كثيرَ المال، وهو أزهد الناس في الدنيا.

وسُئل الإمام أحمد عن الرجل يكون معه ألفُ دينار هل يكون زاهدًا؟ قال: نعم، بشرط ألا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت[2].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٤٩) عن التابعي الزاهد مالك بن دينار بنحوه.

(٢) انظر: «طبقات الحنابلة» (٢/ ١٤).

وقال بعض السلف: الزاهد من لا يغلب الحلالُ شكرَه، ولا الحرامُ صبره[١].

وهذا من أحسن الحدود، فإن الزهدَ حقيقةٌ مركبة من الصبر والشكر، فلا يستحق اسم الزاهد من لا يتَّصف بهما؛ فمن غلب شكرُه لِما وُسِّع عليه من الحلال وصبرُه لما عُرض له من الحرام، فهو الزاهد على الحقيقة، بخلاف من غلب الحلالُ شكرَه والحرامُ صبرَه، فكان شكره وصبره مغلوبَين، فإن هذا ليس بزاهد.

وسمعت شيخ الاسلام يقول: الزهد تركُك ما لا ينفعك، والورع تركك ما يضرّك[٢].

فالزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليدين منها، ويقابله الشحُّ والحرص.

وهو ثلاثة أقسام: زهد في الحرام، وزهد في الشبهات والمكروه، وزهد في الفضلات؛ فالأول فرض، والثالث فضل، والثاني متوسط بينهما بحسب درجة الشبهة، فإن قوِيَت التحق بالأول، وإلا فبالثالث.

وكما أن الرغبة في الدنيا أصلُ المعاصي الظاهرة، فهي أصلُ معاصي القلب؛ من السخط والحسد والكبر والفخر والخُيلاء والتكاثر؛ وهذا كلُّه من امتلاء القلب بها لا مِن كونها في اليد، وامتلاءُ القلب بها ينافي الشكر، ورأس الشكر تفريغ القلب منها، وبالله التوفيق.

وامتداد المال كامتداد العمر والجاه، فخير الناس من طال عمره وحسن عمله، فهكذا من امتدَّ ماله وكثر خيره؛ فعُمر المرءِ وماله وجاهه إما أن يرفعه درجات، وإما أن

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٣٧١) عن ابن شهاب الزهري.
(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٢١، ٢١/ ٣٠٥).

يضعه درجات.

وسرُّ المسألة: أن طريق الفقر والتقلُّل طريق سلامةٍ مع الصبر، وطريق الغنىٰ والسعة في الغالب طريقُ عطبٍ؛ فإن اتقىٰ الله في ماله ووصل منه رحِمَه، وأخرج منه حقَّ الله، وليس مقصورًا علىٰ الزكاة بل من حقِّه إشباعُ الجائع، وكسوة العاري، وإغاثة الملهوف، وإعانة المحتاج والمضطر فطريقُه طريق غنيمة، وهي فوق السلامة.

فَمَثَلُ صاحب الفقر كمثل مريضٍ قد حُبس بمرضه عن أغراضه، فهو يُثاب علىٰ حسن صبره علىٰ حبسه. وأما الغني فخطره عظيم في كسبه وجَمعه وصرفه، فإذا سَلِم كسبُه وحَسُن وأخذه من وجهه وصرفه في حقِّه، كان أنفع له.

فالفقير كالمتعبد المنقطع عن الناس، والغنيُّ المنفق في وجوه الخير كالمفتي والمُعلِّم والمجاهد؛ ولهذا جعله النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قرين الذي أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويُعلِّمها، فهو أحد المحسودين اللذَين لا ثالث لهما(٣).

والجهلة يغبطون المنقطعَ المتخلِّي المقصورَ النفع علىٰ نفسه، ويجعلونه أولىٰ بالحسد من الغنيِّ المنفق والعالم المعلم.

فإن قيل: فأيهما أفضل: من يختار الغنىٰ للتصدُّق والإنفاق في وجوه البِرّ؟ أم من يختار الفقر والتقلُّل ليبعُد عن الفتنة ويَسْلَم من الآفة، ويُرَفِّهَ قلبَه علىٰ الاستعداد للآخرة فلا يَشْغَلَه بالدنيا؟ أم من لا يختار لا هذا ولا هذا بل يختار ما اختاره الله له فلا يُعنىٰ باختياره واحدًا من الأمرين؟

---

(٣) سبق تخريجه.

قيل: هذا موضع اختلف فيه حال السلف الصالح:

فمنهم من اختار المال للجهاد به والإنفاق وصرفه في وجوه البرّ، كعبد الرحمن ابن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره من مياسير الصحابة، وكان قيسُ بن سعد يقول: «اللهم إني من عبادك الذين لا يُصلحهم إلا الغنىٰ»[1].

ومنهم من اختار الفقر والتقلُّل كأبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجماعةٍ من الصحابة معه، وهؤلاء نظروا إلىٰ آفات الدنيا وخَشُوا الفتنة بها، وأولئك نظروا إلىٰ مصالح الإنفاق وثمراته العاجلة والآجلة.

والفرقة الثالثة لم تختر شيئًا، بل كان اختيارها ما اختاره الله لها.

وكذلك اختيار طول البقاء في الدنيا لإقامة دين الله وعبادته:

فطائفة اختارته وتمنَّته.

وطائفة أحبت الموت ولقاء الله، والراحة من الدنيا.

وطائفة ثالثة لم تختر هذا ولا هذا، بل اختارت ما يختاره الله لها، وكان اختيارهم معلقًا بما يريده الله دون مراد معيَّن منهم، وهي حال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنهم قالوا له في مرض موته: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: «قد رآني» قالوا: فما قال لك؟ قال: «قال لي: إني فعَّال لما أريد»[2].

---

(١) أخرجه الدِّينَوَري في «المجالسة» (٢٢١٠) بلفظ: «اللهم هب لي حمدًا ومجدًا، لا مجد إلا بفِعال ولا فِعال إلا بمال، اللهم لا يُصلحني القليل ولا أَصلُحُ عليه».

(٢) سبق تخريجه.

والأولى: حال موسىٰ، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه لما جاءَه ملكُ الموت لَطَمه ففقأ عينه[١] ولم يكن ذلك حبًّا منه للدنيا والعيش فيها، ولكن لينفِّذ أوامر ربِّه، ويقيم دينَه، ويجاهد أعداءَه، فكأنه قال لملك الموت: أنت عبد مأمور، وأنا عبد مأمور، وأنا في تنفيذ أوامر ربِّي وإقامة دينه. فلما عُرِضت عليه الحياة الطويلة وعَلِم أن الموت بعدها اختار ما اختاره الله له.

وأما نبيُّنا، صلوات الله وسلامه عليه، فإن ربَّه أرسل إليه يخيره، وكان أعلمَ الخلق بالله، فعلم أن ربَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُحبُّ لقاءَه ويختاره له فاختار لقاءَ الله، ولو علم أن ربَّه يحبُّ له البقاءَ في الدنيا لتنفيذ أوامره وإقامة دينه لما اختار غير ذلك، فكان اختياره تابعًا لاختيار ربِّه، كما أنه لما خيَّره ربُّه عَزَّوَجَلَّ بين أن يكون مَلِكًا نبيًّا وبين أن يكون عبدًا نبيًّا[٢] وعلم أن ربه يختار له أن يكون عبدًا، اختار ما اختاره الله له، فكان اختيارُه في جميع أموره تابعًا لاختيار الله له.

ومما ينبغي أن يعلم أن كلَّ خصلةٍ من خصال الفضل قد أحلَّ اللهُ سبحانه رسولَه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أعلاها، وخصَّه بذُروة سَنامِها، فإذا احتجَّت بحاله فرقةٌ من فِرَق الأمة التي تفرَّقت تلك الخصالَ وتَقاسَمَتْها علىٰ فضلها علىٰ غيرها، أمكن الفرقةَ الأخرىٰ أن تحتجَّ به علىٰ فضلها أيضًا.

فإذا احتجَّ به الغزاة والمجاهدون علىٰ أنهم أفضل الطوائف، احتجَّ به العلماء والفقهاء علىٰ مثل ما احتجَّ به أولئك.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٧)، ومسلم (٢٣٧٢)، وذكر فقء العين عند مسلم فقط.

(٢) سبق تخريجه.

وإذا احتجَّ به الزهاد والمتخلُّون عن الدنيا علىٰ فضلهم، احتج به الداخلون في الدنيا والولاية وسياسة الرعية لإقامة دين الله وتنفيذ أمره.

وإذا احتج به الفقير الصابر، احتج به الغنيُّ الشاكر.

والمقصود بهذا الفصل أنه ليس الفقراء الصابرون بأحقَّ به من الأغنياء الشاكرين، وأحقُّ الناس به أعلمهم بسنته وأتبعهم لها، وبالله التوفيق.

ص٥٢٣

الباب الخامس والعشرون
في بيان الأمور المضادَّة للصبر والمنافية له والقادحة فيه

لما كان الصبر حبسَ اللسان عن الشكوىٰ إلىٰ غير الله، والقلبِ عن التسخُّط، والجوارح عن اللطم وشقِّ الثياب ونحوها، كان ما يضاده واقعًا علىٰ هذه الجملة.

فمنه الشكوىٰ إلىٰ المخلوق، فإذا شكا العبدُ ربَّه إلىٰ مخلوق مثلِه فقد شكا من يرحمه إلىٰ من لا يرحمه، ولا تضادُّه الشكوىٰ إلىٰ الله كما تقدم في شكاية يعقوب إلىٰ الله مع قوله: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ [يوسف: ١٨، ٨٣].

وأما إخبار المخلوق بالحال، فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلىٰ زوال ضَرَرِه لم يقدح ذلك في الصبر، كإخبار المريض بشَكاتِه، وإخبارِ المظلوم لمن ينتصر به بحاله، وإخبارِ المبتلىٰ ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فَرَجُه علىٰ يديه.

وقد كان النبي ﷺ إذا دخل علىٰ المريض يسأله عن حاله ويقول: «**كيف تجدك؟**»[1] وهذا استخبار منه واستعلام لحاله.

وأما الأنين فهل يقدح في الصبر؟

فيه روايتان عن الإمام أحمد[2].

والتحقيق: أن الأنين علىٰ قسمين: أنينُ شكوىٰ فيُكرَه، وأنينُ استراحةٍ وتفريجٍ فلا

---

(١) أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١)، وحسنه الترمذي.

(٢) انظر: «المغني» لابن قدامة (٣/ ٣٦٠).

يكره، والله أعلم.

والشكوىٰ نوعان:

شكوىٰ بلسان القال.

وشكوىٰ بلسان الحال ولعلَّها أعظمُها، ولهذا أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أُنعِم عليه أن يظهر أثر نعمة الله عليه. وأعظم من ذلك من يشتكي ربَّه وهو بخير، فهذا أمقتُ الخلق عند ربه.

❀❀❀❀❀

فصل

ص٥٢٦ مما ينافي الصبر شق الثياب ولطم الوجه والدعاء بالويل

ومما ينافي الصبر: شقُّ الثياب عند المصيبة، ولطمُ الوجه، والضربُ بإحدىٰ اليدين علىٰ الأخرىٰ، وحلقُ الشعر، والدعاءُ بالويل؛ ولهذا برئ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «ممن سَلَق وحَلَق وخَرَق»[1]. سَلَق: رَفَع صوته عند المصيبة، وحلق رأسه، وخرق ثيابه.

ولا ينافيه البكاء والحزن، قال تعالىٰ عن يعقوب: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] قال قتادة: «كظم علىٰ الحزن، فلم يقل إلا خيرًا»[2].

ومما يقدح في الصبر: إظهار المصيبة والتحدُّث بها، وكتمانها رأس الصبر.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤)، وهو عند البخاري (١٢٩٦) بنحوه.

(٢) سبق تخريجه.

ودخل رجلٌ علىٰ داود الطائي في فراشه فرآه يزحف، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! فقال: مَه لا تُعلِم بهذا أحدًا. وقد أُقعِد قبلَ ذلك بأربعة أشهر لم يَعلم بذلك أحد[1].

ص٥٣٠ مما يضاد الصبر الهلع والجزع

فصل

ويضاد الصبر الهَلَع، وهو: الجزع عند ورود المصيبة، والمنع عند ورود النعمة؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١] وهذا تفسير الهَلوع.

قال الجوهري[2]: الهَلَع: أفحَشُ الجزع، وقد هَلِع بالكسر، فهو هَلِعٌ وهَلُوع، وفي الحديث: «**شرُّ ما في العبد شحٌّ هالِع، وجُبن خالِع**»[3].

فالشحُّ والجبن أردأ صفتين في العبد، ولا سيما إذا كان شحُّه هالعًا، أي: مُلقٍ له في الهَلَع، وجبنه خالعًا، أي: قد خلع قلبَه من مكانه، فلا سماحة ولا شجاعة، لا نفع بماله ولا ببدنه، كما يُقال: (لا طعنة ولا جفنة، ولا يَطْرُد ولا يَثْرُد)[4] بل قد قمعه وصغَّره وحقَّره ودسَّاه[5] الشحُّ والخوفُ والطمعُ والفزع.

وإذا أردت معرفة الهلوع، فهو الذي إذا أصابه الجوعُ مثلًا أظهر الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألمُ أسرع الشكاية، وإذا أصابه القهرُ أظهر الاستضامة والاستكانة وباءَ

(١) انظر: «تسلية أهل المصائب» (ص٢١٥).
(٢) في «الصحاح» (٣/ ١٣٠٨).
(٣) أخرجه أبو داود (٢٥١١)، وصححه ابن حبان (٢٣٥٠).
(٤) أي: لا يُرجىٰ منه أي نفع، لا في طعن العدو وطرده، ولا في إكرام الضيف وقِراه. الجفنة: القصعة الكبيرة، والثَّرْد: فَتُّ الخبز ونحوه.
(٥) دسَّاه أي: أخفاه. انظر: «لسان العرب» (١٤/ ٢٥٦).

بها سريعًا، وإذا أصابه الوجعُ أسرع الانطراح علىٰ جنبه، وأظهر الشكاية، وإذا بدا له مأخذُ طَمَعٍ طار إليه سريعًا، وإذا ظَفِر به أحلَّه من نفسه محلَّ

وهذا كله من صِغَر النفس ودناءتها، وتَدْسِيَتها في البدن واخفائها وتحقيرها، والله المستعان.

الباب السادس والعشرون

ص٥٣٢

في بيان دخول الصبر والشكر في صفات الرب جَلَّجَلَالُهُ وتسميته بالصَّبور والشَّكور، ولو لم يكن للصبر والشكر من الفضيلة إلا ذلك لكفى به

أما الصبر، فقد أطلقه عليه أعرَفُ الخلق به وأعظمُهم تنزيهًا له بصيغة المبالغة، ففي «الصحيحين»(١) من حديث الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي، عن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما أحدٌ أصبرَ علىٰ أذًى سمعه من الله عَزَّوَجَلَّ يَدعُون له ولدًا، وهو يعافيهم ويرزقهم**».

وفي أسمائه الحسنىٰ «الصَّبور»(٢) وهو من أمثلة المبالغة، أبلغ من المُصابر والصابر.

وظهور أثر هذا الاسم في العالَم مشهود بالعِيان كظهور اسمه «الحليم».

والفرق بين الصبر والحلم: أن الصبر ثمرةُ الحِلم وموجَبه، فعلىٰ قدر حلم العبد يكون صبره، والحلم في صفات الرب تعالىٰ أوسع من الصبر، ولهذا جاء اسمه «الحليم» في القرآن في غير موضع، ولِسَعَته يَقرِنُه سبحانه باسم «العليم» كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

وفي أثر: «أن حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم وبحمدك، لك

(١) البخاري (٧٣٧٨)، ومسلم (٢٨٠٤).

(٢) جاء ذلك في رواية حديث أبي هريرة: «**إن لله تسعةً وتسعين اسمًا...**» التي في آخرها سردُ أسماءِ الله تعالىٰ. أخرجه الترمذي (٣٥٠٧) وقال: «حديث غريب... وقد رُوي هذا الحديث من غير وجهٍ عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا نعلم في كبير شيءٍ من الروايات ذكرَ الأسماء إلا في هذا الحديث».

الحمد علىٰ حِلمك بعد عِلمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد علىٰ عفوك بعد قدرتك»(١).

وأما صبره سبحانه فمتعلِّق بكفر العباد وشركهم ومسَبَّتهم له سبحانه، وأنواع معاصيهم وفجورهم، فلا يُزعجه سبحانه ذلك كلُّه إلىٰ تعجيل العقوبة، بل يصبر علىٰ عبده ويُمهله ويستصلحه ويرفُق به ويَحْلُم عنه، حتىٰ إذا لم يبقَ فيه موضع للصنيعة، ولا يصلح علىٰ الإمهال والرفق والحلم، ولا ينيب إلىٰ ربه ويدخل عليه، لا من باب الإحسان والنِّعَم، ولا من باب البلاء والنِّقَم - أخَذَه أخْذَ عزيزٍ مقتدر، بعد غاية الإعذار إليه، وبذل النصيحة له ودعائه إليه من كل باب. وهذا كله من موجَب صفةِ حِلْمه، وهي صفة ذاتية له لا تزول.

وأما الصبر فإذا زال متعلَّقه، كان كسائر الأفعال التي توجد لوجود الحكمة وتزول بزوالها، فتأمَّلْه، فإنه فرقٌ لطيف اعترف الحُذَّاق بعُسْره، وقلَّ من تنبَّه له ونبَّه عليه. وأشكل علىٰ كثير منهم معنىٰ هذا الاسم.

وإذا أردت معرفة صبر الربّ تعالىٰ وحلمه والفرق بينهما، فتأمَّلْ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١] وقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩١] وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦] علىٰ

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٧٤) عن التابعي الجليل حسان بن عطية بلفظ: «حملة العرش ثمانية...فيقول أربعة منهم... ويقول أربعة...». وقوّىٰ سنده الذهبي. انظر: «مختصر العلو» (ص ١٠١).

قراءة من فتح اللام[1].

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السماوات والأرض، فبالحلم أمسكهما، وإمساكهما أن تزولا بكفر بني آدم هو الصبر، فبحلمه صَبَرَ عن معاجلة أعدائه.

وفي الآية إشعار بأن السماوات والأرض تَهُمُّ وتستأذن بالزوال لعِظَم ما يأتي به العباد، فيمسكها بحلمه ومغفرته، وذلك حبسُ عقوبتِه عنهم، وهو حقيقة صبره تعالىٰ، فالذي صدر عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساكُ هو الصبرُ، وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها، فتأمله.

ولمَّا كان اسمه «الحليم» أَدخَلَ في الأوصاف، واسمُ «الصبور» في الأفعال، كان الحلم أصل الصبر، فوقع الاستغناء به في القرآن عن اسم «الصبور». والله أعلم.

❊❊❊❊❊

فصل

ص٥٤٠ تسمية الله تعالىٰ بالشكور

وأما تسميته سبحانه بالشَّكور؛ فهو في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

وفي القرآن تسميته شاكرًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] وتسميته أيضًا شكورًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

---

(١) هي قراءة متواترة، قرأ بها من العشرة: الكِسائي. انظر: «النشر» للجَزَري (٢/ ٣٠٠).
(٢) سبق تخريجه.

فجمع لهم سبحانه بين الأمرين: أنْ شكَرَ سعيَهم وأثابهم عليه، والله تعالىٰ يشكر عبدَه إذا أحسن طاعته، ويغفر له إذا تاب إليه، فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه ومغفرته لإساءته، إنه غفور شكور.

وقد تقدم في الباب العشرين ذكر حقيقة شكر العبد، وأسبابه، ووجوهه.

وأما شكر الرب تعالىٰ فله شأن آخر، كشأن صبره، فهو أولىٰ بصفة الشكر من كل شَكور، بل هو الشَّكور علىٰ الحقيقة؛ فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والطاعة، فلا يستقلُّه أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشرة أمثالها إلىٰ أضعافٍ مضاعفة. ويشكر عبدَه بقوله بأن يُثني عليه بين ملائكته وفي مَلَئِه الأعلىٰ ويُلقي له الشكر بين عباده، ويشكره بفعله، فإذا تَرَك له شيئًا أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئًا ردَّه عليه أضعافًا مضاعفة، وهو الذي وفَّقه للترك والبذل، وشكره علىٰ هذا وهذا.

ولمَّا عقر نبيه سليمانُ الخيلَ غضبًا له إذ شغَلَتْه عن ذكره، فأراد ألا تشغَلَه مرةً أخرىٰ، أعاضه عنها متن الريح.

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن له، شكر له ذلك بأن مكَّنه في الأرض يتبوَّأ منها حيث يشاء.

ولمَّا ترك الصحابةُ ديارهم وخرجوا منها في مرضاته، أعاضهم منها أن أملكهم الدنيا وفتحها عليهم.

ومن شُكره أنه يجازي عدوَّه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا[١] ويُخفِّف به عنه يوم القيامة، فلا يضيِّع عليه ما يعمله من الإحسان وهو من أبغض خلقه إليه.

ومن شكره أنه غفر للمرأة البغيِّ بسَقْيها كلبًا كان قد جهده العطش حتىٰ أكل الثَّرَىٰ[٢] وغفر لآخَرَ بتَنْحِيَة غصنِ شوكٍ عن طريق المسلمين[٣].

فهو سبحانه يشكر العبدَ علىٰ إحسانه إلىٰ نفسه، والمخلوق إنما يشكر من أحسن إليه.

وأبلغ من ذلك أنه هو الذي أعطىٰ العبدَ ما يُحسِن به إلىٰ نفسه وشكَرَه عليه، بل شكَرَه علىٰ قليله بالأضعاف المضاعفة التي لا نسبة لإحسان العبد إليها، فهو المحسن بإعطاء الاحسان وإعطاء الشكر، فمن أحقُّ باسم الشكور منه سبحانه!

ولمَّا كان سبحانه هو الشَّكورُ علىٰ الحقيقة، كان أحبَّ خلقه إليه مَن اتَّصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عطَّلها واتَّصف بضدِّها. وهذا شأن أسمائه الحسنىٰ؛ أحبُّ خلقه إليه من اتَّصف بموجَبها وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها، ولهذا يبغض الكَفور، والظالم، والجاهل، والقاسي القلب، والبخيل، والجبان، والمَهين، واللئيم.

وهو جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين، محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، جواد يحب أهل

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٨٠٨).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).
(٣) أخرجه البخاري (٢٤٧٢)، ومسلم (١٩١٤).

الجود، سَتِير يحب أهل السَّتر، قادر يلوم علىٰ العجز، والمؤمنُ القويُّ أحب إليه من المؤمن الضعيف، عفوٌّ يحب العفو، وترٌ يحب الوتر.

وكلُّ ما يحبُّه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجَبها، وكل ما يبغضه فهو مما يضادُّها وينافيها.

خاتمة

ص٥٤٥

يا من عزم علىٰ السفر إلىٰ الله والدار الآخرة، قد رُفع لك عَلَم فشمِّر إليه فقد أمكن التَّشمير، واجعل سيرَك بين مطالعةِ منَّته ومشاهدةِ عيب النفس والعمل والتقصير، فما أبقىٰ مشهدُ النعمة والذنب للعارف من حسنة يقول: هذه مُنجيتي من عذاب السعير! ما المُعوَّل إلا علىٰ عفوه ومغفرته فكل أحدٍ إليهما فقير، أبوء بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي، أنا المُذنب المسكين وأنت الرحيم الغفور.

ما تساوي أعمالُك - لو سلمَتْ مما يُبطلها - أدنىٰ نعمةٍ من نعمه عليك، وأنت مرتهنٌ بشكرها من حين أرسل بها إليك، فهل رعَيتها باللهِ حقَّ رعايتها وهي في تصريفك وطوع يديك؟ فتعلَّق بحبل الرجاء وادخُل من باب التوبة والعمل الصالح ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠].

نَهَج للعبد طريقَ النجاة وفَتح له أبوابَها، وعرَّفه طرقَ تحصيلِ السعادة وأعطاه أسبابها، وحذَّره من وبال معصيته، وأشهده في نفسه وفي غيره شؤمَها وعقابها، وقال: إن أطعتَ فبفضلي وأنا أشكر، وإن عصيت فبقضائي وأنا أغفر ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

أزاح عن العبد العلل، وأمره أن يستعيذ به من العجز والكسل، ووعده أن يشكر له القليل من العمل، ويغفر له الكثير من الزلل ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

أعطاه ما يشكره عليه، ثم يشكره علىٰ إحسانه إلىٰ نفسه لا علىٰ إحسانه إليه، ووعده

علىٰ إحسانه لنفسه أن يُحسن جزاءه ويقرِّبَه لديه، وأن يغفر له خطاياه إذا تاب منها ولا يَفْضَحَه بين يديه ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

وَثِقت بعفوه هفوات المذنبين فوَسِعَها، وعكفَتْ بكرمه آمال المحسنين فما قطع طمعها، وخرقت السبعَ الطباقَ دعواتُ التائبين والسائلين فسمعها، ووسع الخلائقَ عفوُه ومغفرته ورزقُه، فما من دابة في الأرض إلا علىٰ الله رزقها، ويعلم مستقرَّها ومستودعها ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

يجود علىٰ عبيده بالنَّوال قبل السؤال، ويُعطي سائله ومؤمِّليه فوقَ ما تعلَّقت به منهم الآمال، ويغفر لمن تاب إليه ولو بلغت ذنوبُه عددَ الأمواج والحصىٰ والتراب والرمال ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها، وأفرَحُ بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها، وأشكَرُ للقليل من جميع خلقه فمن تقرَّب إليه بمثقال ذرَّةٍ من الخير شكرها وحمدها ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

تعرَّف إلىٰ عباده بأسمائه وأوصافه، وتحبَّب إليهم بحلمه وآلائه، ولم تمنعه معاصيهم أن جاد عليهم بآلائه، ووعد من تاب إليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

السعادة كلها في طاعته، والأرباح كلها في معاملته، والمِحَن والبلايا كلُّها في معصيته ومخالفته، فليس للعبد أنفعُ من شكره وتوبته ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

أفاض علىٰ خلقه النعمة، وكتب علىٰ نفسه الرحمة، وضمَّن الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه[(١)] ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

يُطاع فيَشكُر، وطاعته من توفيقه وفضله، ويُعصىٰ فيَحْلُم، ومعصية العبد من ظلمه وجهله، ويتوب إليه فاعل القبيح فيغفر له، حتىٰ كأنه لم يكن قط من أهله ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

الحسنة عنده بعشر أمثالها أو يضاعفها بلا عددٍ ولا حسبان، والسيِّئة عنده بواحدة ومصيرُها إلىٰ العفو والغفران، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السماوات والأرض إلىٰ آخر الزمان ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

بابه الكريم مُناخ الآمالِ ومحطُّ الأوزار، وسماء عطاه لا تُقلِع عن الغيث بل هي مِدْرار، و«**يمينه مَلأىٰ لا تَغِيضها نفقةٌ، سَحَّاء الليل والنهار**» ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

لا يُلقَّىٰ وصاياه إلا الصابرون، ولا يفوز بعطاياه إلا الشاكرون، ولا يَهلِك عليه إلا الهالكون، ولا يشقىٰ بعذابه إلا المتمرِّدون ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

فإياك أيها المتمَرِّدُ أن يأخذك علىٰ غرَّةٍ فإنه غيور، وإذا أقمتَ علىٰ معصيته وهو يمدُّك بنعمته فاحذَرْه فإنه لم يُهملك لكنه صبور، وبُشراك أيها المحسن التائب بمغفرته ورحمته ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

ومن علم أن الرب شكور تنوَّع في معاملته، ومن عرف أنه واسع المغفرة تعلَّق بأذيال مغفرته، ومن علم أن رحمته سبقَتْ غضبَه لم ييأس من رحمته ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ

(١) كما في حديث أبي هريرة عند البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

شَكُورٌ ﴾.

من تعلَّق بصفةٍ من صفاته أخذَتْه بيده حتىٰ تُدخلَه عليه، ومن سار إليه بأسمائه الحسنىٰ وصل إليه، ومن أحبَّه أحبَّ أسمائه وصفاته وكانت آثرَ شيءٍ لديه.

حياةُ القلوب في معرفته ومحبته، وكمالُ الجوارح في التقرُّب إليه بطاعته والقيامِ بخدمته، والألسنةِ في ذكره والثناء عليه بأوصاف مِدْحته، فأهلُ شكره أهل زيادته، وأهلُ ذكره أهل مجالسته، وأهلُ طاعته أهل كرامته، وأهلُ مصعصيته لا يُقَنِّطهم من رحمته، إن تابوا فهو حبيبهم، وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم، يبتليهم بأنواع المصائب، ليكفِّر عنهم الخطايا ويُطهِّرهم من المعايب ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

والحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه كما يحبُّ ربُّنا ويرضىٰ، وكما ينبغي لكرم وجهه وعِزِّ جلاله، حمدًا يملأ السماوات والأرض وما بينهما، وما شاء ربُّنا من شيءٍ بعدُ، بمجامع محامده كلِّها ما علمنا منها وما لم نعلم، علىٰ نِعَمِه كلِّها ما عَلمنا منها وما لم نعلم، عددَ ما حمده الحامدون، وغَفَل عن ذكره الغافلون، وعددَ ما جرىٰ به قلمُه، وأحصاه كتابُه، وأحاط به علمه.

وصلىٰ الله علىٰ عبده ورسوله محمدٍ نبي الرحمة وإمام المتقين وقائد الخير، وسَلَّم تسليمًا كثيرًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فهرس الموضوعات





فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة	الأصل
باب المنهيات يمحوه الله سبحانه ويبطل أثره بأمور عديدة من فعل العبد وغيره، فإنه يُبطله بالتوبة النصوح، وبالاستغفار، وبالحسنات الماحية، وبالمصائب المكفرة، وباستغفار الملائكة، وبدعاء المؤمنين، فهذه ستة في حال حياته، وبتشديد الموت وكربه وسياقه عليه، فهذا عند مفارقته الدنيا		٧١-٧٢
الغايات أشرف من الوسائل	٤٧	٨٠
من تعلَّق بصفة من صفات الرب تعالىٰ أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته إليه	٤٨	٨٥
الرب تعالىٰ يُحب أسماءه وصفاته، ويحب مقتضىٰ صفاته وظهور آثارها في العبد	٤٨	٨٥
زاد بعضهم في الصبر قسمًا آخر، وسمّاه: الصبر علىٰ الصبر، وقال: هو أن يستغرق في الصبر حتىٰ يعجز الصبر عن الصبر		٩٣
من ذاق لذة شيء قويت همته في تحصيله	٥٦	١٠٦

الفائدة	الصفحة	الأصل
كما يقوىٰ الرجاء لنزول الغيث في وقته، كذلك يقوىٰ الرجاء لإصابة نفحات الرحمن جل جلاله في الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة، ولا سيما إذا اجتمعت الهمم، وتساعدت القلوب، وعظم الجمع، كجمع عرفة وجمع الاستسقاء وجمع أهل الجمعة، فإن اجتماع الهمم والأنفاس أسباب نصبها الله تعالىٰ مقتضية لحصول الخير ونزول الرحمة، كما نصب سائر الأسباب مُفضِية إلىٰ مسبِّباتها. بل هذه الأسباب في حصول الرحمة أقوىٰ من الأسباب الحسية في حصول مسبّباتها		١١١
ويستعين علىٰ الخروج عن العوايد بالهرب عن مظان الفتنة والبعد منها		١١٣
وههنا لطيفة للشيطان لا يتخلص منها إلا حاذق، وهي أن يظهر له في مظان الشر بعض شيء من الخير، ويدعوه إلىٰ تحصيله، فإذا قرب منه ألقاه في الشبكة، والله المستعان		١١٣
ليس الشأن في فعل المأمور بل الشأن كل الشأن ألا ينسىٰ الآمر حال الإتيان بأمره	٦٠	١١٨
العبد يعمل العمل سرًّا بينه وبين الله سبحانه فيكتب في ديوان السر، فإذا تحدث به نقل إلىٰ ديوان العلانية	٦١	١١٩
فراغه من ألم مطالعة الجناية كل وقت وضيقه بها	٦١	١٢٠

الفائدة	الصفحة	الأصل
كلما كان الشيء أقرب إلىٰ الغاية كان أفضل من البعيد عنها		٢١٦
هاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أنه قد يكون العمل المعيّن أفضل منه في حق شخص، وغيره أفضل منه في حق غيره، فالغني الذي له مال كثير، ونفسه لا تسمح ببذل شيء منه، فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة		٢١٦
وقال شريح: ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم: ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت		٢٣٣
حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها، وكثيرًا ما يجرّ ذلك إلىٰ الأشر والبطر، والسجود ذلٌّ لله وعبودية وخضوع، فإذا تلقّىٰ به نعمته لسر سَوْرة فرح النفس وانبساطها، فكان جديرًا بدوام تلك النعمة، وإذا تلقاها بالفرح الذي لا يحبه الله والأشر والبطر - كما يفعله الجهال عند ما يحدث الله لهم من النعم - كانت سريعة الزوال، وشيكة الانتقال، وانقلبت نقمة، وعادت استدراجًا		٢٦٢
كم عاملته - تبارك اسمه - بما يكره فعاملك بما تحب؟		٢٦٣
لله علىٰ عبده نوعان من الحقوق لا ينفك منهما	١١٩	٢٨٦
مسألة الغنيّ الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل؟	١٢٦	٢٩٧

الفائدة	الصفحة	الأصل
حديث صحيح صريح في سبق فقراء الصحابة إلىٰ الجنة	١٣٠	٣٠٩
ثلاثة مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضًا وتجتمع علىٰ معنىٰ واحد، وهو: أن من كانت الدنيا مراده لم يكن له في الآخرة نصيب	١٣٦	٣٢١
فالدنيا في الحقيقة لا تذم وإنما يتوجه الذم إلىٰ فعل العبد فيها، وهي قنطرة ومعبر إلىٰ الجنة أو إلىٰ النار. ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب علىٰ أهلها وما فيها، وهو الغالب علىٰ اسمها، صار لها اسم الذم عند الاطلاق، وإلا فهي مبنىٰ الآخرة ومزرعتها، ومنها زاد الجنة، وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيش ناله أهل الجنة في الجنة إنما كان بما زرعوه فيها		٣٣١-٣٣٢
والتحقيق في هذا الباب: أنه لا يُنظر إلىٰ الألفاظ المحدثة بل ينظر إلىٰ ما جاء به الكتاب والسنة من الأسماء والمعاني، والله قد جعل وصف أوليائه الإيمان والتقوىٰ، فمن كان نصيبه من ذلك أعظم، كان أفضل، ولا اعتبار بما سوىٰ ذلك، والله أعلم		٣٤٨-٣٤٩

الفائدة	الصفحة	الأصل
فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح، وإنما الله سبحانه هو الذي يكمله بذلك ويعطيه إياه وليس له ذلك من نفسه، بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم، والظلم المضاد للعدل، وكل علمٍ وعدلٍ وخيرٍ فيه فمن ربه لا من نفسه		٣٦٨
وتأمل ما في هذا العتاب الموجع لمن استمر علىٰ إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلىٰ أن رأىٰ القبور ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثرُ قلبَه فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات. وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود		٣٦٩
فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره، كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم إذ لم يتكاثروا بها. وكل مَن كاثر إنسانًا في دنياه أو جاهه أو غير ذلك شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة		٣٦٩-٣٧٠
وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلىٰ غاية كل حيّ زائرين غير مستوطنين، بل هم مستودعون في المقابر مدة وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلىٰ الغاية زائرين، فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار! فهم فيها عابرو سبيل إلىٰ محل الزيارة، ثم منتقلون من محل الزيارة إلىٰ المستقر		٣٧١

الفائدة	الصفحة	الأصل
قال إبراهيم النخعي: «كانوا يرون أن الصدقة تدفع عن الرجل المظلوم» وتطفئ الخطيئة، وتحفظ المال، وتجلب الرزق، وتفرح القلب، وتوجب الثقة بالله وحسن الظن به، كما أن البخل سوء الظن بالله، وترغم الشيطان، وتزكي النفس وتنميها، وتُحبّبُ العبد إلىٰ الله وإلىٰ خلقه، وتَستُر عليه كل عيب، كما أن البخل يغطي عليه كل حسنة، وتزيد في العمر، وتستجلب أدعية الناس ومحبتهم، وتدفعُ عن صاحبها عذاب القبر، وتكون عليه ظلًّا يوم القيامة، وتشفع له عند الله، وتهونُ عليه شدائد الدنيا والآخرة، وتدعوه إلىٰ سائر أعمال البر فلا تستعصي عليه، وفوائدها ومنافعها أضعاف ذلك		٤٩٠-٤٩١
لا يلزم من استوائهما في أصل الأجر استواؤهما في كيفيته وتفاصيله	١٨٩	٤٩٣
فهاهنا أمران: أجر وقرب، فإن استويا في أصل الأجر لكن الأعمال التي قام بها العامل تقتضي أثرًا زائدًا وقربًا خاصًّا، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء. وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه أراد قتل صاحبه» فاستويا في دخول النار، ولا يلزم استواؤهما في الدرجة ومقدار العذاب، فأعطِ ألفاظ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقّها ونزّلها منازلها يتبيّن لك المراد		٤٩٤

الفائدة	الصفحة	الأصل
ولا يصح للعبد مقام الإرادة حتىٰ يفرد طلبه ومطلوبه، فلا يتقسّم المطلوب ولا الطلب. أما توحيد المطلوب فألا يتعلّق طلبه وإردته بغير الله، وما يقرّب إليه ويدني منه. وأما توحيد الطلب فأن يستأصل الطلب والإرادة نوازع الشهوات وجواذب الهوىٰ، وتسكن الإرادة في أقطار النفس فتملأها، فلا يدع فيها فضلًا لغير الانجذاب إلىٰ جناب الحق جَلَّجَلَالُهُ فتتمحض الإرادة له، ومتىٰ تمحضت كان الزهد لصاحبها ضرورة		٥١١
فالزاهد أروح الناس بدنًا وقلبًا، فإن كان زهده وفراغه من الدنيا قوة له في إرادة الله والدار الآخرة بحيث فرّغ قلبه لله، وجعل حرصه علىٰ التقرّب إليه وشحّه علىٰ وقته أن يضيع منه شيء في غير ما هو أرضىٰ لله وأحب إليه		٥١٢
كما أن الرغبة في الدنيا أصل المعاصي الظاهرة، فهي أصل معاصي القلب	١٩٦	٥١٣
وشريعته طافحة بذلك لمن تأمّلها، فالحكم بالقرائن الظاهرة من نفس شريعته وما جاء به فهو حجة لقضاة الحق وولاة العدل، كما أنه حجة علىٰ قضاة السوء، وولاة الجور، والله المستعان	...	٥٢٢



الفائدة	الصفحة	الأصل
المراد بالهلوع	٢٠٣	٥٣١
صبر الله عَزَّوَجَلَّ	٢٠٥	٥٣٤
فتأمل ما تحت قوله: «أعوذ بك منك» من محض التوحيد، وقطع الالتفات إلىٰ غيره، وتكميل التوكل عليه، والاستعانة به وحده، وإفراده بالخوف والرجاء، ودفع الضرّ وجلب الخير، فهو الذي يمس بالضرّ بمشيئته، وهو الذي يدفعه بمشيئته، وهو المستعاذ بمشيئته من مشيئته، فهو المعيذ من فعله بفعله		٥٣٧-٥٣٨
لما كان سبحانه هو الشكور علىٰ الحقيقة كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر	٢٠٩	٥٤٤
من تعلق بصفة من صفاته أخذته بيده حتىٰ تدخله عليه	٢١٣	٥٤٨